التوازن في المنهج القرآني وآثاره التربوية

د. جمال الدين أحمد القادري[1]

مُلخّصُ البحث

يعدُّ التوازن في المنهج القرآني خصيصة من خصائص الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها، وهو يلبّي جانباً أصيلاً من جوانب هذه الفطرة، ويحقّق لها الارتياح والطمأنينة.

وهناك عديدٌ من الموازنات تجسّد هذه الحقيقة، يدرسها الباحث ليبيّن ويؤكّد - من خلالها ومن خلال ما يترتّب عليها من آثار تربوية - أحقيّةَ الرسالة الإسلامية في قيادة البشرية لكل ما يحقّق لها السعادة التي ينشدها كل عاقل.

وهذه الموازنات تتناول مسائل تتعلق بقضايا الغيب والشهادة، والمشيئة الإلهية ومسائل السّنن الكونية، ومفهوم القدر الإلهي والاختيار الإنساني، وعبودية الإنسان لله، ومقامه عند خالقه ومولاه، والوحي الإلهيّ والعقل الإنساني، ومفهومي الرهبة من الله، والطمأنينة بالله، مع الآثار التربوية المترتبة على كل قضية على حدة، بتوفيق من الله وفضل منه وإحسان.

---

(١) أستاذ التفسير المساعد في قسم الدراسات القرآنية، جامعة طيبة.

مقدمة عامة

الحمدُ لله، والصّلاةُ والسّلامُ على رسول الله وآله وصحبه.

مشكلة البحث:

لا مشكلة قائمة في البحث من حيث استنباط التوازنات ودراستها بمضمون جدّي موضوعي وأسلوب يتناغم مع مضمونه، فالله تعالى هو الموفق المعين، ولكن المشكلة تكمن عندما يستشعر الباحث أهمية الموضوع الذي يطرقه ويحاول جاهداً أن يلبي تطلّعاته في الوصول لكبد الحقيقة في قضايا عقدية وتشريعية وأخلاقية تلحّ على أرباب التخصّص لدراستها ومعالجتها بمنهج تأصيلي متمكّن يضمن - بعون الله - استيعابها والتفاعل معها نظرياً وتطبيقياً من قبل أبناء هذا الدين الذي تخلّف كثير منهم عن الفهم الحقيقي الشرعي لتلك الحقائق، وبالتالي الممارسات الصحيحة لها، وما جرّه ذلك من آثار سلبية في المجتمعات المسلمة، وما كان له من انعكاسات غير مرضية على المجتمعات غير المسلمة.

الهدف من الدراسة وأهميتها:

يتجلّى الهدف من هذا البحث وبالتالي معرفة أهميته بما يلي:

١. بيان معنى «التوازن» في المفهوم الاصطلاحي، وبخاصة أن هذا المفهوم ليس واضحاً في أذهان كثير من الناس.
٢. اعتماد مفهوم التوازن كركن مهمّ من أركان المنهج القرآني.
٣. ربط مفهوم التوازن في المنهج القرآني بالآثار التربوية المترتبة عليه.
٤. دراسة عديد من التوازنات في قضايا تُعدّ من أهم ركائز قيام العقيدة الإسلامية في نفوس أبنائها.

٥. تجلية بعض التوازنات التي كان لعدم فهم المسلمين لها فهماً صحيحاً آثار سلبية مريرة في حياة الأمة المسلمة.

٦. المشاركة في بيان التربية القرآنية للإنسان التي تصل به إلى شخصية سويّة في دينها وخلقها وتربيتها وثقافتها.

٧. نقد بعض النظريات الإلحادية لملحدين اغترّ بهم كثير من الناس حتى في الديار الإسلامية وللأسف الشديد.

الدراسات السابقة:

لم أحظَ بكتب تناولت هذا الموضوع بعنوان ودراسة مستقلة، وبالموازنات التي بحثت فيها، وإن كان هناك من بعضها من الكُتّاب عَرَضاً دون إفراد وبتفصيل وتحليل بعض كتب الثقافة الإسلامية التي تعرضت لخصيصة التوازن بصورة عامة إجمالية دون تفصيل لأي ركن من أركان التوازن التي درستها في البحث - بفضل الله - ولا غَرْوَ بعد ذلك أن لا نجد من تحدَّث عن الربط.

منهج البحث:

تعتمد منهجية هذا البحث التوصيف، والاستدلال، والسَّبْر، والمقارنة، والاستنباط، وضرب الأمثال، والقصص، وذلك بما يخدم التركيز على خصيصة التوازن التي تعدّ من أهم خصائص المنهج القرآني الفريد. ولا أقصد البيان النظري فحسب، بل أضيف إليه الوقائع العملية التي هي الآثار الإيجابية الرائعة لتلك الخصيصة، والتي أفرزت وتفرز تربية إيمانية فذّة، الأمّة الإسلامية بحاجة ماسّة إليها وبخاصة في هذا العصر.

خطة البحث، وتتضمن:

مقدمة عامة: وتحتوي:

مشكلة البحث.

الهدف من الدراسة وأهميتها.

الدراسات السابقة.

منهجية البحث.

ثمانية عشر مبحثاً:

خمسة مباحث في تعريفات لغوية واصطلاحية لمفردات عنوان البحث، وفيها مطالب.

مبحث في بيان أهمية المنهج القرآني.

أربعة عشر مبحثاً في إيراد عديد من التوازنات محلّ البحث، ويُضمّ إليها الآثار التربوية المترتبة على كل توازن، وكما هو مفصّل بأسمائها في فهرس الموضوعات.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

المبحث الأول: تعريفُ التّوازنِ لغةً واصطلاحاً:

المطلب الأول: تعريف التّوازنُ لغةً: يقال: وهو وَزْنَهُ، بالفتح، وزِنَتَهُ ووِزانَهُ، وبوزانِهِ وبوزانَتِهِ، بكسرِهنّ: قُبالَتَهُ، ووازَنَه: عادَلَهُ، وقابلَهُ، وحاذاهُ[1].

المطلب الثاني: تعريف التّوازنُ اصطلاحاً: من خلال ما سقناه آنفاً من المعنى اللّغوي لكلمة التّوازن، نجد أنّ مفردات المقابلة، والمحاذاة، والمعادلة هي المرادة في الموازنة بين مفاهيمَ، وقيَمٍ، وأركانٍ، وأصولٍ متقابلةٍ، تحتاج إلى إثبات الاعتدال فيما بينها، فلا إفراطَ ولا تفريطَ بين أيٍّ منها وما يقابله؛ بل كُلٌّ يَعطى حقّه كاملاً دون إهدارٍ لحقّ الجانب الآخر، باتّزانٍ دقيقٍ وتناسقٍ سديدٍ.

المبحث الثاني: تعريفُ المنهج لغةً واصطلاحاً:

المطلب الأول: التّعريفُ اللّغويُّ: المنهجُ كالمنهاج، وهو الطّريقُ البيّنُ الواضح، يقال: أنهج الطّريقُ إذا وَضُح واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيّناً[2].

وفسّر الطبريُّ قوله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾ [المائدة: ٤٨]، فقال: «معنى الكلام: لكلّ قومٍ منكم جعلنا طريقاً إلى الحقّ يؤمّه، وسبيلاً واضحاً يعمل به»، وهذا ما فسّره به ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[3].

المطلب الثاني: التُعريفُ الاصطلاحيُّ: اجتهد علماءُ البحث العلميّ في وضع تعاريفَ للمنهج، وكان من أبرز من تصدّى لذلك:

١. الدكتور علي سامي النّشار الذي عرّف المنهجَ بأنّه: «طريق البحث عن الحقيقة في أيّ علمٍ من العلوم، أو في أيّ نطاق من نطاقات المعرفة الإنسانية»[4].

(١) لسان العرب، ابن منظور، والقاموس المحيط، الفيروزآبادي: مادة (وَزَنَ).
(٢) المصدران السّابقان: مادة (نَهَجَ)، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري (٣٨٤/١٠).
(٣) المصدر السابق الأخير (٣٨٨/١٠، ٣٨٩).
(٤) نشأة الفكر الفلسفي عند المسلمين للنشّار (ص٧).

٢. الدكتور عبد الرحمن بدوي، وقد عرّف المنهجَ بأنّه: «الطّريقُ المؤدّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد التي تهيمن على سير العقل، وتحدّد عملياته حتى يصل إلى نتيجةٍ معلومة»(١).

وتعريف الدكتور بدوي تضمّن التّعريفَ الأوّلَ، وزاد عليه القواعد المنظّمة للمنهج، ولو قال في تعريفه: «البحث» عوضاً عن «العقل»، لكان أقرب إلى إصابة أُسّ المعنى للمنهج، حيث يشمل بذلك العلوم النظرية والتطبيقية، ولا شكّ أن العقل هو المرشد الرئيس في فهم العلوم، وإدراك النّتائج النّهائية للتّجارب والتّطبيقات الحسيّة.

المبحث الثالث: تعريفُ القرآنِ لغةً واصطلاحاً:

المطلب الأول: تعريفُ القرآنِ لغةً: القرآن من الفعل (قرأ) على الرأي الراجح، فهو مهموز الأصل، استناداً إلى موارد اللغة، وقوانين الاشتقاق، وهو بمعنى الجمع والضّم، والقراءةُ: ضمُّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، فالقرآنُ في الأصل كالقراءة مصدر قرأ قراءة وقرآناً، قال تعالى: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ**﴾ [القيامة: ١٧، ١٨]؛ أي: قراءته، فهو مصدر على وزن (فُعلان) بالضمّ، كالغُفران والشّكران، تقول: قرأته قرءاً وقراءةً وقرآنا، بمعنى واحد. سُمّي به المقروء تسميةً للمفعول بالمصدر(٢).

وقد خُصّ القرآنُ بالكلام المنزّل على محمّدٍ ﷺ، فصار له كالعلم الشّخصيّ.

أمّا القولُ بأنه غير مهموز الأصل؛ لأنه وصفٌ من القَرء بمعنى الجمع، أو أنه مشتقٌّ من القرائن، أو أنه مشتقٌّ من قرنت الشيء بالشيء، أو أنه مرتجلٌ على الكلام المنزّل على النبيّ ﷺ، فكلّ أولئك لا يظهر له وجهٌ وجيهٌ، ولا يخلو توجيه بعضه من كُلْفةٍ، ولا من بُعدٍ عن قواعد اللغة وموارد الاشتقاق(٣).

(١) مناهج البحث العلمي لبدوي (ص٥).
(٢) ينظر: لسان العرب، والقاموس المحيط، مادة (قرأ).
(٣) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، الزرقاني (٧/١)، ومباحث في علوم القرآن، منّاع القطان (ص١٥، ١٦).

المطلب الثاني: تعريفُ القرآنِ اصطلاحاً: هو: «كلامُ اللهِ المنزَّلُ على محمّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المتعبَّدُ بتلاوته». فـ (الكلام) جنسٌ في التعريف، يشمل كلّ كلامٍ، وإضافته إلى (الله) يُخرِج كلام غيره من الملائكة والإنس والجنّ.

و(المنزَّلُ) يُخرِج كلامَ الله الذي استأثر به سبحانه ﴿**قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا**﴾ [الكهف: ١٠٩].

وتقييدُ المنزَّل بكونه (على محمّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يُخرِج ما أُنزل على الأنبياء قبله، كالتوراة والإنجيل وغيرهما.

و(المتعبَّدُ بتلاوته) يُخرِج قراءاتِ الآحاد، والأحاديثَ القُدسيّة - إنْ قلنا: إنّها منزَّلةٌ من عند الله بألفاظها - لأنّ التعبّد بتلاوته معناه الأمر بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة، وليست قراءة الآحاد والأحاديث القدسية كذلك[١].

المبحث الرابع: تعريفُ الأثرِ لغةً واصطلاحاً:

المطلب الأول: تعريفُ الأثرِ لغةً: يُطلَق الأثرُ في اللّغة على معانٍ عديدةٍ، نكتفي منها بما يُسعفنا في بحثنا:

١. بقيّةُ الشّيء، وخرج في إثْره وأَثَره: بعده، والتّأثُّر: إبقاءُ الأثر في الشّيء، وأثّرَ في الشّيء: تركَ فيه أثَراً[٢].

٢. العلامةُ[٣].

٣. السّببُ أو النتيجةُ؛ يقال: تُوفّي من أثَرِ الجرح الذي أُصيب به؛ أي بسببه. وترك فيه أثَراً؛ أي: نتيجةً[٤].

٤. ما بقي من رسم الشّيء وضربة السّيف، وسُنَن النّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٥].

(١) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن (١٣/١)، ومباحث في علوم القرآن (ص١٧).
(٢) لسان العرب، والقاموس المحيط مادة (أثر).
(٣) المعجم الوسيط مادة (أثر).
(٤) المصدر السّابق.
(٥) مختار الصّحاح، أبو بكر الرّازي، مادة (أثر).

المطلب الثاني: تعريفُ الأثرِ اصطلاحاً: لايخرج المعنى فيه عن المعاني اللّغويّة التي سقناها آنفاً، ويمكن أن نمثّل لذلك عند الفقهاء، حيث يستعملون كلمة الأثر للدّلالة على بقيّة الشّيء، أو ما يترتّب عليه، فيقولون: أثرُ عقد البيع، وأثرُ الفسخ، وأثر النّكاح...[١].

المبحث الخامس: تعريفُ التّربيةِ لغةً واصطلاحاً:

المطلب الأول: تعريفُ التّربيةِ لغةً: اسمٌ مشتقٌّ من الربّ، ويطلق في اللّغة على المالك، والسّيد، والمدبّر، والمربّي، والقيّم، والمنعم، ولا يطلق غير مضافٍ إلّا على الله تعالى، وإذا أُطلق على غيره، فيقال: ربُّ كذا.

ويقال: رّبّه يُربِّه: أي: كان له ربّاً[٢].

وتستعمل كلمةُ التّربية بمعنى التّهذيب وعلوّ المنزلة، وقد ذكر ذلك الزّمخشري؛ فقال: «ومن المجاز: فلانٌ في رَباوةِ قومه: في أشرفهم»[٣].

المطلب الثاني: تعريفُ التربيةِ اصطلاحاً: فقد ورد فيها تعاريفُ عديدةٌ أسوق منها - مع التّصرّف -:

١. إنشاء الشّيء حالاً فحالاً إلى حدّ التّمام[٤].
٢. تغذيةُ الإنسان جسماً وعقلاً وروحاً وإحساساً ووجداناً وعاطفةً[٥].
٣. الزيادةُ والنّماءُ في تزويد الطّفل بأنواع المعرفة، لينمو عقله، وتصفو نفسه، وتزكو روحه[٦].

---

(١) لسان العرب، مادة (أثر).
(٢) النّهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير: باب الرّاء مع الباء (٤٥٠/٢)، والقاموس المحيط، مادة (ربو).
(٣) أساس البلاغة، كتاب الرّاء، مادة (ربو) (١٥٨/١).
(٤) التّوقيف على مهمّات التّعاريف، باب التّاء، فصل الرّاء (ص١٦٩).
(٥) أصول الفكر التّربوي في الإسلام، عباس محجوب (ص١٥).
(٦) تربية الأطفال في ضوء القرآن والسّنة، يوسف بديوي ومحمد قاروط (١٤/١).

٤. رفعُ درجة وعي الفرد من مختلف الأعمار وفي شتّى الظّروف والملابسات، وفي كافّة الجوانب الدينيّة والاجتماعيّة والثقافيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والنفسية، بغية تحقيق السّعادة والاستقرار للفرد والأسرة والمجتمع(١).

وهذه التعاريف تصلح بمجموعها أن تكون أهلاً لتعريف جامعٍ للتربية بالمعنى الاصطلاحي.

المبحث السّادس: أهميةُ المنهج القرآنيّ:

ومن خلال التّعريفات اللّغويّة والاصطلاحيّة السّابقة جميعها تظهر أهميةُ المنهج القرآني في حديثنا عن التّوازن كَسِمَةٍ بارزةٍ من سماته، وما يترتّب عليه من آثار تربويّة متميّزة، نُدركُها:

١. **بصورةٍ عامّة**: من حيث إنّه الطّريقُ المنظَّمَةُ التي يُقَدَّمُ من خلالها حقائقُ دقيقةٌ، وتربيةٌ عميقةٌ، تهدف إلى بناء مجتمعٍ مؤمنٍ متماسكٍ قويٍّ.

٢. **بصورةٍ خاصّة**: من حيث دورُه الفعّال في تكوين إنسانٍ سَويّ الشّخصية في دينه وخلقه وتربيته وثقافته وعلمه وعمله، يعرف ما عليه من واجبات وما له من حقوق، ولا يبخل في تقديم خبراته إلى الأجيال المتعاقبة لتستفيد منها بكلّ مجالاتها: العقدية، والعلمية، والفكرية، والسلوكية، والتربوية.

ولذلك نجد أنّ حديثنا عن التّوازن في المنهج القرآنيّ يُعدّ خصيصةً من خصائص الفطرة البشرية التي فطر اللهُ النّاسَ عليها، وهو يلبّي جانباً أصيلاً من جوانب هذه الفطرة، ويحقّق لها الارتياح والطّمأنينة، ويملأ ساحةَ التّصورات البشرية في جميع مجالاتها بالوسطية (الاعتدال)، والتي هي ترجمة صادقة للخيريّة التي تتمتّع بهما الأمّة الإسلاميّة الحقّة، كما قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]، والذي يجعلها تتبوّأ مكانة الشّهادة على الأمم يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ**﴾ [البقرة: ١٤٣].

(١) دور التّربية الأسريّة في حماية الأبناء من الإرهاب، د. سارة صالح الخمشي (ص٧).

وهناك عديدٌ من الموازنات التي تجسّد هذه الحقائق، وتبرز أحقيّة الرّسالة الإسلامية في قيادتها للبشرية، وتلبية حاجاتها النفسية والجسدية والفكرية والعلمية... وتغذّي جميع خصائص النفس الإنسانية بمنهجٍ متوازنٍ دقيقٍ يحقّق السّعادة التي ينشدها كلُّ عاقل.

وسنبحث - بعون الله - في أهمّ هذه الموازنات المستنبَطة من القرآن الكريم، ونُغذّيها - بتوفيق الله - ببيان الآثار التّربوية المترتّبة عليها كتطبيقٍ عمليٍّ تحتاجه الأمّةُ المحمديّةُ.

المبحث السّابع: التّوازنُ في مفهوم العقيدة بين عالَم الغيب وعالَم الشّهادة:

راعتِ العقيدةُ الإسلاميةُ الفطرةَ البشريّةَ في جميع مجالاتها، ذلك أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - الذي خلق الإنسانَ وأمره بالإيمان بهذه العقيدة والتّمسّك بها - علم أنّ الإدراكَ الإنسانيّ لن يستوعب كلّ أسرار هذا الوجود، ولن يقوى على إدراكها جميعها، فأودع في فطرته الارتياحَ للمجهول، والارتياحَ للمعلوم، وجعل هذا الفكرَ البشريّ بما ملّكه إياه من عنصر الوعي، قادراً على تناول ما يقع تحت هذين العالَمين الغيب والشهادة، ذلك أنّ هذا الفكر لا بد أن يستقبل شيئاً مفهوماً له يستطيع أن يدركه ثم يعمل بما فيه، فيتدبّر ويفهم ثم يطبّق، وإلا فإن العقيدة التي لا تملك لأبنائها إلا المعمّيات والطلاسم والأساطير التي لا تدركها العقول ليست عقيدة، وهي إن سُمّيت عقيدةً فإنّها تحمل في موادّ بنائها عواملَ فنائها، ولذا نجد ديننا الحنيف حفل بالعقل إيّما احتفال، بل جعله صاحباً مخلصاً له، متّفقاً معه ومتعاوناً على بلوغ الغاية، لا يقوم أحدهما إلا بالآخر، فلا بد للدّين من عقل يدركه، ويؤثّر به وينفذه، ومن أجل ذلك سقط التّكليف عن المجنون، ولا بدّ للعقل من وحي يكمل نقصه، ويمكّنه من إدراك ما لا يستقلّ بإدراكه منفرداً، فالوحيُ لا يناقض العقلَ، ولا يوجب ما يحيله أو يحيل ما يوجبه[1]، ورفضُ ما يدلّ عليه الدّليل العقليُّ القاطع،

(١) فكر ومباحث للشيخ علي الطنطاوي (ص٨٠، ٨١) بتصرف.

يقتضي هدم الأصل وهو (العقل) الذي ثبتت به رسالةُ الرسول المتكلّمُ على صدق دعواه الرسالة، فإذا هُدِم الأصلُ هُدِم الفرعُ لا محالة، فرفضُ الدّلائل العقليّة رجوعٌ على الدّلائل النّقلية بالنّقض[1].

وهذا فضل من الله على البشرية، حيث رضي لها عقيدةً شاملةً تلبّي هذا الجانب وذاك، وتتوازن بها الفطرة توازناً يريحها وتجد فيه كفاء ما أودعه الله فيها من قدرات وطاقات وأشواق.

فإذا كان لا سبيل للعقل البشري إلى الإحاطة بحقائق الغيب؛ لأنه لم يوهب القدرة على إدراكها في ماهيتها أو كيفيتها - وإن كان يدرك إمكانها كما أسلفت في بداية هذه الفِقْرة - وفي مقدّمتها حقيقة ماهية الذات الإلهية، فهناك صفات الذات الإلهية من: وجود، ووحدانية، وعلم، وقدرة، وحكمة، وخلق، وإرادة... وهب الله الفكر الإنساني القدرة على إدراكها، وإدراك ضرورتها، وجعل كل المكونات في هذا الوجود تنطق بها وتدلّ عليها.

ومن هذا الجانب الدّقيق الواعي الحرّ من جوانب التوازن في أهم قضية من قضايا العقيدة الدقيقة الواعية الحرّة نستعرض آياتٍ بيّناتٍ تشرق بتلك الحقائق السابقة، أودعها الله في قرآنه الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ومن هذه الآيات قوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشّورى: ١١]، ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣][2]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

(١) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، للشيخ نديم الجسر (ص٢١٠). وينظر: درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، فهذا الكتاب القيّم النفيس كلّه في تحقيق هذا المعنى، والبحث فيه بتفصيل دقيق رائع.

(٢) المنفيُّ هنا هو الإدراك - الذي هو عبارة عن الإحاطة - لا مجرّد الرؤية، فإنّ الرؤية ثابتة بالأحاديث المتواترة تواتراً لا شكّ فيه ولا شبهة، والتقدير: لا تدركه الأبصار، بل بعضها، وهي أبصار المؤمنين يوم القيامة، كما تعين ثبوت ذلك - كما أسلفنا - واعتضادها بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. انظر: تفسير أبي السعود: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٢٦١/٢)، وفتح القدير للشوكاني (٢٠٩/٢).

فهذه الآياتُ تصرّح بأنّ العقل البشريّ لا يدرك ولا يستطيع أن يدرك كُنْهَ الذّات الإلهيّة، فأنّى للمحدود أن يحيط بذات اللّامحدود، وأنّى للمقيَّد أن يستوعب ذات المطلق، وإذا كان ذلك كذلك فإنّه لا يمكن أن تجري مقابلة المثل بمثله، ولا يصحّ أن يقاس النّظير على النّظير؛ لأنّ كُنْهَ الذات الإلهية ليس هناك شيءٌ يماثلها فتُقابَل به، ولا نظير يجاريها فتقاس عليه.

نجد ذلك جليّاً في آيات قرآنية كثيرة، ومنها ما ورد في سورة آل عمران [٤٠، ٤٧، ٥٩] ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

فهذه الآيات البيّنة تدلّ على مشيئة الله المطلقة أو تعلّقها بالخلق دون بيانٍ للكيفية؛ لأنها تفوق الإدراك البشريّ والوعي الإنسانيّ، وفوق حدود الطّاقة العقليّة التي وهبها الله لعباده، فلا يمكن والحالة تلك أن تتعدى فتتجاوز الحدود، وإلا فإن صاحبها يَخلِطُ في وهمه ويتخبط في تخيلاته ولا يصل إلى مبتغاه.

يقول الدكتور هنري لنك الطبيب النفسي المشهور: «فهل يُعقل أن يحسّ البصر أو السّمع أو الشّمّ إحساساً عادياً بخالقه وهو محدود بما أراد له هذا الخالق لا يتعدّاه؟! إنه لو أراد ذلك ما تمكّن؛ لأنه مرتبط بحدّ لا يتعدّاه... كذلك البشر مُنحوا عقلاً، مجالاته وصَوْلاته محدودة بمعرفة مخلوقات الله ومنشآته المختلفة؛ أي محدودة بالكون الفسيح؛ لأنه هو مجال المعرفة لا يتعدّاه العقل»[1].

(١) العودة إلى الإيمان، د. هنري لنك (ص٨٠، ٨١)، وينظر في ذلك: العقيدة الإسلامية وأسسها، د. عبد الرحمن حسن حبنكة (ص١٨، ١٩).

فهناك من الآيات ما يتعلق بقضية الغيب الذي استأثر الله بعلمه فلم يطلع عليه أحداً من خلقه[1]، كما في مسألة الروح، حيث قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا هو سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومن هذه المفاتيح ما ورد في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

وكذلك مسألةُ علم موعد السّاعة، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّىۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةًۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَاۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وهناك من الآيات ما يُظهر إذن الله لمن شاء أن يطلعه على بعض المغيّبات، كما في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ومن ذلك أيضاً ما أورده القرآن الكريم عن عديد من أشراط الساعة، كنزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ؛ حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سياق حديثه عن عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ... وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزّخرف: ٥٧ - ٦١].

---

(١) وممّا أطلع الله عليه عباده ما حدثنا به القرآن، ومن ذلك حديثه عن معاناة الظّلمة المتكبرين عند معاينة سكرات الموت من الإهانة البالغة من ملائكة الموت، حيث قال جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وأيّ بيانٍ رادعٍ وزاجرٍ بعد هذا البيان؟!

فقوله تعالى: ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾؛ أي: دليلٌ على قيامها، وإنما يكون ذلك بنزوله من السماء حكماً مُقسِطاً عدلاً؛ وهذا هو المعتمد(١) الذي تفسرّه وتؤيّده القراءة الأخرى: (لَعَلَمٌ) بفتح العين واللام بعدها؛ أي: إشارة وأمارة على وقوعها(٢).

ويؤيّد هذا كثير من الأحاديث الصحيحة في بابه.

ومن أشراط السّاعة خروجُ يأجوجَ ومأجوجَ، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

وقوله تعالى في الحديث عن سدّ يأجوج ومأجوج: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨].

ويجب حيال ما سبق التّلقي ثم الإيمان والاتّباع؛ لأنه فوق مدرَكات الفكر البشري، فلا بدّ للعقل من نور يستعين به في هذه الحال، وهو الخبر الصادق، الصادق في طريقه، والصادق في مصدره، وهو الوحيُ الإلهيُّ(٣)، وهذا ما بيّنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٧].

فالآياتُ المتشابهاتُ من مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]،

(١) تفسير ابن كثير (١٣٢/٤)، وفتح القدير (٧٣٤/٤).

(٢) ينظر: إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، للشيخ أحمد بن محمد البنا، تحقيق: د. شعبان محمد إسماعيل (٤٥٨/٢)، وتفسير الكشاف للزمخشري (٤٩٤/٣)، وتفسير روح المعاني للآلوسي (٩٥/٢٥).

(٣) ينظر: المنقذ من الضلال للإمام الغزالي، الفصل الرابع: البحث العقلي في ما وراء الطبيعة عبث، والفصل الخامس: العقل ومشاكل ما وراء الطبيعة، والتفكير الفلسفي في الإسلام، د. عبد الحليم محمود (ص٤٦٣ - ٤٦٧)، والنبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبيد الله دراز (ص٣٩).

هذه آيات في حقّ صفات الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، نؤمن بها ونثبت ما أثبته الله لنفسه بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تكييف، بل كما قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

سُئل الإمامُ مالكُ بنُ أنسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الاستواء، فقال: «الاستواءُ معلومٌ، والكيفيّةُ مجهولةٌ، والسؤالُ عنه بدعةٌ»(١).

ونأتي في مقابلة ما سبق كلّه - ممّا يدخل في حيّز كُنْه الذّات الإلهية، ومشيئة الله المطلقة، وعلم الله المطلق، ممّا لا يستطيع الفكر البشري أن يدركه - إلى الحديث عما يستطيع الفكر البشري أن يجول فيه ويصول، فيستوعب ويدرك ويعمل، فصفحة هذا الوجود الكوني الذي يموج وينطق ويقرّ بخصائص الذات الإلهية من: وجود، ووحدانية، وقدرة، وخلق، وتدبير، وإرادة، وحكمة... كلّ ذلك يقدمّه لنا القرآن ببراهينه المقنعة، ويعرضه بأسلوب بيانيّ معجز، ومنطق مفهوم واضح، تهضمه العقول والقلوب بسهولة ويسر، وتتلقّاه الفِطرة بالقَبول والتّسليم.

ولنقرأ ولنستمع معاً إلى مجموعة من الآيات القرآنية التي ضمّت حشداً كبيراً من الاستفهامات الإنكارية والتّعجبية، والتي تنعى على الكفّار عدم نظرهم في أنفسهم الذي هو أقرب الأدلة إليهم وألصقها بهم ومن أقواها على وجود الله ووحدانيته، فكيف مع هذا كله يعبدون أو يشركون معه غيره؟! قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذّاريات: ٢١]. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصّلت: ٥٣].

ومن تلك الاستفهامات الإنكارية التّعجبيّة ما يلي: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطّور: ٣٥، ٣٦].

(١) ينظر: تفسير ابن عطية المحرر الوجيز (٤/٩)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣٩٨/٣)، وشرح العقيدة الطحاوية (٩٦/١).

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٤].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ * أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١ - ٢٤].

ولِطول ما هرب الغربيون من الله إلى «الطبيعة»، أو بالأَحْرَى من الكنيسة التي كانت تمارس معهم صنوفاً من الاستبداد والإذلال والمهانة الروحية والفكرية والمادية.

لِطول ما هربوا من فكرة الله الكَنَسية إلى فكرة الطبيعة، ونَسُوا أنّ هذه الطبيعة ذاتها غيبٌ، لكنّه غيْبٌ ضالٌّ منحرفٌ، لا تُدرَك حقيقتُه، ولكن تُدرَك فقط آثارُه، ومن ثَمّ فهذا الإيمانُ الضَّالُّ بالطبيعة هو - من حيث جوهره إيمانٌ بالغيب - عن طريق تلك الطاقة الفطرية التي تُؤمر بما لا تدركه الحواسُّ، وهكذا ظنّت أوروبا أنها تهرب من «الغيبيات»، فإذا بالغيبيات تلاحقها في مهربها، ولكنّها في صورةٍ ضالّةٍ تناسب ما هي عليه من ضلالٍ وانحرافٍ.

وبالنتيجة نقول: إنّ طاقةَ ما لا تُدركه الحواسُّ «الغيب» وما تدركه الحواسّ «الشّهادة» موجودةٌ في كيان الإنسان وعالم الإنسان، ومتّصلةٌ كذلك اتصالاً وثيقاً في عالمه الشّامل الكبير.

وبعد ذلك: فلنقرأ ولْنُصغ إلى هذه الآيات التي تنطق بأعظم الآيات، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الرّوم: ٢٠ - ٢٥].

المبحث الثامن: الآثارُ التّربويّةُ المترتّبةُ على التّوازن في مفهوم العقيدة بين عالَم الغيب وعالَم الشّهادة:

نجد من خلال البيان السّابق، وما استعرضناه من آيات الله النّاطقة بعالمَيّ الغيب والشهادة، وآيات الله في الآفاق والأنفُس الدّاعية إلى النّظر والتّفكر والتّدبُّر، أنها كلّها تقدّم الدّليل تلو الدّليل بحُجَجٍ قويّة دامغة على إدراك خصائص الذّات الإلهية، وتفرّد هذه الذّات القدسيّة العظيمة بالخلق والإيجاد والإنعام والإمداد، مما يربط بوثاق محكم وشيج بين المجهول والمعلوم، والغيب الذي لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأذهان، والمكشوف الذي تجول فيه العقول وتتدبره القلوب، وهي تستشعر إزاء الغيب الذي لا تستوعبه جلالَ الرّبوبية وكمالَ قدر الألوهية، وتستشعر إزاء المعلوم الذي تدركه ما حباه الله لهذا الإنسان - المخلوق الصغير في هذا الكون - من قيمةٍ عالية وكرامة مهيبة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

وبهذا وذاك تتوازن النّفسُ الإنسانيةُ توازناً منضبطاً، يُضفي عليها الرّاحةَ والسعادةَ، وهي تؤمنُ بعالم الغيب الواسع الكبير، وهي في الوقت ذاته تتفكّر وتتدبّر في عالم الشهادة الممتد الكبير، ممّا يزيد إيمانها إيماناً ويقينها يقيناً بعظمة الله وعلمه الذي هو أوسع من كل غيب ومن كل شهادة.

المبحث التاسع: التّوازنُ بين طلاقةِ المشيئة الإلهية وثباتِ السُّنن الكونيّة:

مشيئةُ الله مطْلقةٌ لا تحدّها حدودٌ ولا تقيّدها قيودٌ، وذلك من خصائص الذّات الإلهية الخالقة المدبّرة الحكيمة، وهي تتآلف تآلفاً كليّاً مع قدرة الله المطلقة، فإذا أرادت مشيئة الله شيئاً وقع ولا رادّ له، يعبّر عن ذلك بالجملة قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿**إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ [النّحل: ٤٠].

ويجسّد هذه الحقيقةَ بالتّفصيل وقائعُ كثيرةٌ قصّها على مسامعنا القرآنُ الكريم في عديدٍ من الآيات، والتي منها: ﴿**أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٩، ٢٦٠].

﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ**﴾ [آل عمران: ٤٠].

﴿**قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾ [آل عمران: ٤٧].

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ * قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٨، ٦٩].

﴿فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ﴾ [الشّعراء: ٤٥].

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ * قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ * فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشّعراء: ٦١ - ٦٣].

﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصّافات: ١٧١ - ١٧٣].

وكثيرةٌ هي الآياتُ التي تقرّر طلاقةَ المشيئة الإلهية، ممّا يقضي بحتمية الإيمان بها والانصياع لمقتضياتها، وفي مقابل ما سبق نجد أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بثّ في هذا الكون سُنناً جاريةً، ونواميسَ مطّردةً، وأمر عباده بالنّظر فيها وإدراكها، والتكيّف وفقها، والتّعامل مع الكون على أساسها، وهنا أمرٌ وشيجُ الصّلة بالتوازن السابق لا بدّ من بيانه، وهو أنّ الكشف عن سُنن الله التي لا تبديل لها لا يُخلّ أبداً بحقيقة «الغيب» المجهول للإنسان - والذي سيظلّ كذلك مجهولاً - ولا بحقيقة طلاقة مشيئة الله وحدوث كلّ شيء بقدَرٍ غيبيٍّ خاصٍّ من الله تعالى، يُنشيء هذا الحدثَ ويُبرزه للوجود في تناسقٍ تامٍّ في العقيدة الإسلامية، وفي تصوّر المسلم الناشيء من حقائق العقيدة.

وهم لا يعلمون فيما وراء العلم الذي منحهم الله إياه إلا الظّنّ، وإنّ الظن لا يُغني من الحقّ شيئاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النّجم: ٢٨].

وباعتبار أنّ الغيب يُعدّ ركن طلاقة المشيئة الإلهية، وبه يتجلّى مفهوم القدَر الذي تنفذ من خلاله هذه السُّنن، فإننا نقول: إنّ الغيب هو الحقيقة «العلمية» الوحيدة المستيقنة من وراء كلّ التّجارب والبحوث.

يقول العلّامةُ الطبيعيُّ «ماريت ستانلي كونجدن» عن الحقائق التي يصل إليها العلم: «إنّ العلومَ حقائقُ مختبرة، ولكنّها مع ذلك تتأثر بخيال الإنسان وأوهامه، ومدى بعده عن الدّقة في ملاحظاته وأوصافه واستنتاجاته، ونتائجُ العلوم مقبولةٌ داخل هذه الحدود، فهي بذلك مقصورة على الميادين الكميّة في الوصف والتّنبؤ، وهي تبدأ بالاحتمالات، وتنتهي بالاحتمالات كذلك، وليس باليقين، ونتائجُ العلوم تقريبيّةٌ، وعُرضةٌ للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات، ونتائجُها اجتهاديّةٌ، وقابلةٌ للتعديل بالإضافة والحذف، وليست نهائيّةً، وإنّنا لَنرى أنّ العالِم عندما يصل إلى قانونٍ أو نظريةٍ يقول: إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن، ويترك الباب مفتوحاً لما يستجدّ من التّعديلات»[1].

هذا وإنّ القرآن لَيعرض أمامنا عديداً من الآيات التي يتبلور فيها هذا المفهوم بشكل واضح، يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤]، فهاتان الآيتان الكريمتان تجمعان مَعْلَماً من معالم السُّنن الكونيّة تتجلّى فيها حقيقةٌ من حقائق الغيب ومشيئةُ الله الطّليقة.

فالحراثةُ سُنّةٌ من سُنن الله في كونه، يقوم بها الإنسانُ كسبب يُوصلُ إلى نتيجةٍ مترتّبةٍ عليها، ولكنّ هذه النتيجة وهي إحياء البذرة من سُباتها، وبعثها من قبرها في

(١) الله يتجلى في عصر العلم، لمجموعة من العلماء، ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد سرحان، من مقال: «درس من شجيرة الورد» لماريت ستانلي كونجدن.

التّربة، وانتعاشها بعد ذلك، كلّ هذا وفق نظامٍ يتمّ بقدَرِ الله وقدرته، ويلمّ النّاسُ بطرَفٍ من هذه الظّاهرة، ولكنّهم يجهلون الحقيقة الكامنة في هذه العملية، وهي في حدّ ذاتها غيبٌ من الغيوب، وهذا ما تمثّله الآية الكريمة التي يقول فيها اللهُ جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحجّ: ٥، ٦].

ومن الآيات التي تعبّر عن هذه الحقيقة قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرّعد: ١١].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

بَيْدَ أنّ ثَمَّةَ أمراً آخرَ لا بدّ من اعتباره، وهو أنّ هذه السُّنن ليست ضرباً لازباً لا تنخرم ولا تتخلّف، بل يمكن أن يحدث لها ذلك إذا أرادته مشيئةُ الله، وإذا توجّهت إليه قدرتُه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي خلق هذه السُّنن ورتّب عليها آثارها، وهو قادر على تعطيلها وإخماد مفعولها متى شاء وكيف شاء، وفق إرادته وحكمته، والآيات التي أوردتُها في بداية حديثي عن طلاقة مشيئة الله هي نفسها تصلح دليلاً هنا.

المبحث العاشر: الآثارُ التّربوية المترتّبة على التّوازن بين مشيئة الله المُطْلَقة، والسُّنن الكونيّة الثّابتة:

بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السّنن الكونية يعيش المسلمُ وروحُه موصولةٌ بخالقها، وقلبُه متعلّقٌ بمشيئة مَنْ فطره، وجعله بين أصبعين من أصابعه يقلبه كيف يشاء، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والمؤمن وفي حالته تلك يباشر الأسبابَ الماديّة، ويتعامل مع سنن الله الكونية، دون إخلالٍ بها أو تقاعسٍ، وإذا وجد أنّ هذه الأسبابَ قد تُحاط أو تصطدم بعقباتٍ تُفشل سريان مفعولها وتحقيق نتائجها، فإنه في هذه الحالة مطالبٌ بمباشرة هذه الوسائل والأسباب، وفق سُنن الله، ملتجئاً بقلبه إلى الله، متوكّلاً عليه، مستعيناً بقوته وقدرته وتدبيره ليصل إلى ما يرجوه وفق حكمة الله ومشيئته.

وهذا التّوكل عملٌ من أعمال القلب، فإذا امتلأ به قلبُ المؤمن، وهو يباشر الأسبابَ المادية على قدر استطاعته، ازدادت قوته المعنوية، وامتلأ قلبه ثقةً بالله وأملاً به في الحصول على النتائج المرجوة.

وإذا لم يتحقّق له ما يرجوه، مع أنه بذل ما في وسعه وطاقته، فإنه يثق عندئذٍ بأنّ الله تعالى قد شاء له وقدّر ما هو خير، وادّخر له الأفضل والأصلح، فهو يستقبل ما لم يتحقّق له من نتائج بمثل استقباله لها فيما لو تحقّقت، فهما حينئذٍ سيّان، وقد كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلُ المتوكّلين، فهذا هو بأبي وأمي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤمر بالهجرة إلى المدينة،

فيستجمع كلَّ الأسباب التي تؤدي به إلى برّ الأمان، دون أن يتواكل أو يقصّر في اتخاذ سببٍ مفيدٍ مناسبٍ له في هجرته[1].

ويجب على المسلم أنْ يعتقد أنّ سُنَنَ الله في كونه، ونواميسَه في خلقه، هي مجرّد أسباب ووسائل يتعامل بها؛ لأنّه مأمور بالتعامل معها ومراعاتها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وليست هي المنشئة للمسبّبات والنتائج، وإنّما المنشئ لها خالقُها ومدبّرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالمسلم مطالبٌ بردّ الأمور كلّها إلى خالق الأسباب ومسبّباتها، والتّعلّقِ به وحدَه دون غيره من وراء الأسباب بعد القيام بواجبه في السّعي والعمل طاعة لأمر الله.

وهكذا يسير المسلم في حياته واثقُ الخُطْو متوازناً مطمئناً زكيَّ النّفس باتصاله بالله وثقته به، عاملاً جادّاً وكادحاً نشيطاً في انتفاعه بثبات السّنن الكونية وبناء تجاربه العلمية وطرائقه العملية، مكتشفاً لأسرار الكون ومكنوناته، محصّلاً لمزايا العلوم النظرية والعملية، مسخِّراً لها في تجاربه الحياتية مستفيداً منها منتفعاً بثمراتها.

وهكذا يتربّى المسلم في ظلّ هذه المعطيات وممارسته لها، فتصطبغ حياته بمزيج من القيم الأدبية الزكية والأخلاقية الرفيعة التي تسمو بالحياة الإنسانية إلى أقصى درجات الكمال التي قدّرها الله لها، وفي حدود الطّاقة التي وهبها اللهُ للإنسان والقُدرات التي ملّكه إيّاها.

المبحث الحادي عشر: التّوازنُ بين مفهوم القَدَرِ الإلهيّ والاختيارِ الإنسانيّ:

هذا التوازن وشيجُ الصّلة بالذي سبقه، من حيث إنّ قدر الله تعالى يعبّر عن طلاقة المشيئة الإلهية وتفرّدها بالفاعلية الحقيقية من وراء الأسباب الظاهرة، والتي منها حركة الإنسان وسعيه، وهذا السّعي وتلك الحركة في التعامل مع سُنن الله يعبّر عن

(١) يُنظر في: السيرة النبوية لابن كثير (٢/٢٣٢ - ٢٣٥)، والروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، للسهيلي (٢/٢٢١ - ٢٣٧).

إرادة الإنسان ومشيئته واختياره، وكلّ ذلك داخلٌ في نطاق المشيئة الإلهية الطّليقة، كما أنه تكريمٌ لهذا المخلوق البشريّ أيّما تكريم:

أوّلاً: حيث جعل اللهُ من هذه الميزات التي ميّز بها الإنسانَ عن غيره من المخلوقات محكّاً لاختباره.

ثانياً: منحه الدَّوْرَ الأوّل في خلافة الأرض، وهو دورٌ ضخمٌ هائلٌ يحوز الإنسان بسببه مركزاً ممتازاً في النّظام الكوني، ويعطيه مجالاً واسعاً للحركة والسّعي والعمل والفاعلية والتأثير في توازنٍ تامٍّ متكاملٍ مع الاعتقاد بطلاقة المشيئة الإلهية كما تقدّم.

إنّ قضيةَ القدر قضيةٌ مشهورةٌ في تاريخ الفلسفات الإسلامية وغير الإسلامية، وقد ثار حولها جدلٌ كثير وكبير تبنّته عديد من الفرق، حتى أن بعضها وُسِمَ باسم هذه القضية وأصبح لها رمزاً وعنواناً مثل: فرقة القَدَرية[1]، وفرقة الجبرية[2]، ولسنا الآن في صدد تفنيد أقوالهم وشبهاتهم والرّد عليها.

وإنما يهمّنا الآن أن نعتقد ثم نعلن: أنّ هذه القضية على الوجه الذي ذكرناه آنفاً هي التي تجعل كفّتي الميزان - الأولى تمثّل قدرَ الله ومشيئته المطلقة، والثانية تمثّل كَسْبَ الإنسان واختياره ومشيئته - معتدلتين متوازنتين بدقّة محكمة وتدبير حكيم، وحسبنا ذلك دليلاً بيّناً قوياً على صحّة اعتقاد أهل السُّنة والجماعة - والذي يمثل الوسطيّةَ والاعتدالَ المجرّدين - وحُجَّةً دامغةً على تهافت اعتقاد القدرية والجبرية، والذي يمثّل الإفراط والتفريط المذمومين.

(١) هي نفسها فرقة المعتزلة، سمّيت بالقدرية لنفيها القدر، وقالوا: إن الإنسان خالقٌ لأفعال نفسه، ومذهبهم يقوم على الأصول الخمسة التي سمّوها: العدل، والتوحيد، وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، لبّسوا فيها الحقّ بالباطل. وسبب تسميتهم بهذا الاسم: أن رأسهم واصل بن عطاء قد اعتزل مجلس الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالتفّ حوله عددٌ من النّاس، فسمّوا بالمعتزلة. ينظر: شرح العقيدة الطحاوية (٧٩١/١ - ٧٩٤)، والفَرق بين الفِرَق (١١٧، ١١٨)، والملل والنحل (٦٤/١).

(٢) هي فرقة خالفت أهل السنة والجماعة وقالت: الإنسان مُسيَّرٌ مجبور في أعماله وأفعاله كلها، فهو كالريشة في الهواء، تتقاذفها الرياح أنّى شاءت، وللجبرية أصناف. انظر في تفصيل ذلك: الملل والنحل للشهرستاني (٨٥/١).

وآياتُ الله التي تقرّر كِفَّتيّ الميزان السابقتين كثيرةٌ، أذكر منها في الجانب الأوّل قولَه تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النّساء: ٧٨].

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التّوبة: ٥١].

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢].

وفي الجانب الثاني نقرأ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾ [النساء: ١١١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١١].

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا * قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشّمس: ٧ - ١٠].

لكنّنا وبالرغم مما تقدّم نجد كثيراً من المسلمين عاميِّهم ومثقّفِهم يستشكلون في أذهانهم قضية القدر[١]، فنراهم يحومون ويجولون في دائرة من التّيه، فلا يخرجون منها إلّا محمّلين بالحَيْرة والتّخبُّط والخَلْط، وأرى أنّ سبب ذلك يعود إلى أمرين اثنين:

الأوّل: أنهم تأثّروا بمناهج الفلسفات المحرّفة كالفلسفة الاعتزالية والجبرية والإغريقية، فقلّدوها على غير هدًى ولا بصيرة، ولم يكلّفوا أنفسهم ردّ ذلك إلى ما

(١) ينظر: موقف البشر تحت سلطان القدر، للعلاّمة مصطفى صبري (ص٢١٩ - ٢٢٦).

ورد في كتاب الله وسُنّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى فرض عدم فهمهم لما فيهما - مع وضوحه - فإنّهم لم يرجعوا إلى أهل الذِّكر - وهم أهل العلم - فيسألونهم عمّا لا يعلمون، ويزيحون عن عقولهم شُبَه ما يستشكلون.

والثاني: أنهم حكّموا عقولَهم وأَرْخَوْا لها العِنانَ مع ما يشُوْبها من نزغاتِ الأهواء والشّهوات الفكرية والنفسية، والأسبقيات العصبية والانتمائية، فبنَوْا لأنفُسهم تصوّراتٍ وإيحاءاتٍ نصّبوها قواعدَ وضوابطَ، فما وافقها - حسب زعمهم - فهو الحقّ، وما خالفها وحاد عنها فهو الباطل.

ولذلك أعلنوا عن وجود مشكلةٍ في قضية القدر، وأنّ هناك تعارضاً وتناقضاً بين قدر الله واختيار الإنسان، وبين مشيئة الله ومشيئة الإنسان.

والحقُّ يُقال: إنّ هذه المشكلةَ ليست في قضية القدَر، وإنّما في عقولهم ومنهج تفكيرهم.

فالتّعارضُ والتّناقضُ إنّما يقع عندما يُنظر إلى القضية بمنظارٍ عقليٍّ مجرّدٍ، ويُجعل هذا النّظرُ العقليُّ الحَكَمَ على موضوعٍ عَقَديٍّ غيبيٍّ جليلٍ، لا يمكن والحال هذه أن يكون للعقل عليه أيُّ سلطانٍ؛ لأنّه مخالفٌ للمنهج السّويّ السديد الذي يقرّر أنّ المصدر الصّحيح الذي يجب أن نعتمده في هذا الأمر وأمثاله هو النّصوصُ الصّحيحةُ الصّريحةُ، فهي التي نستمدّ منها مقرّراتنا العقلية في المجال الذي لا دليلَ لنا فيه إلّا ما يُطلعنا اللهُ عليه منه، وفي هذه القاعدة تكريمٌ للعقل أيّما تكريم.

ويمكن أن نُلخّص هذه الحقيقة في قضية القدر، فنقول: إنّ كلَّ شيءٍ في هذا الوجود مخلوقٌ بقدَر الله، وكلَّ حركة وسكنة تتمّ فيه بقدَر الله، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ**﴾ [القمر: ٤٩، ٥٠].

فحياةُ الناس وشؤونُهم وتقلبّاتُهم وأعمالُهم، وما ينشأ عن ذلك من أحداثٍ، كلُّه بقدَر الله، فهو الذي فطرَه وخلَقه.

وإنّ قدَرَ الله في الناس يتحقّق ويقع من خلال كسبهم واختيارهم وإرادتهم وعملهم، فما يصدر منهم من سوءٍ فبقدَر الله، وما يصدر من خير فبقدر الله، وهم مجزيون بهذا وذاك بما كسبت أيديهم وبما اختاروه هم لأنفسهم، إنْ خيراً فخير، وإنْ شرّاً فشر، فالقضيّةُ سهلةُ الفهم، يسيرةُ المنال.

وقد جسّد هذه الحقيقة كثيرٌ من آيات الله التي جاء كلا الأمرين فيها مجتمعين في نصٍّ واحدٍ، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٥، ١٦٦][1].

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٤ - ٥٦].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

المبحث الثاني عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين مفهوم القدَرِ الإلهيّ والاختيارِ الإنسانيّ:

والنصوص القرآنية الأخيرة، والنصوص التي سقتها سابقاً في مجموعتين الأولى التي تتحدث عن مشيئة الله المطلقة، والثانية التي تعلن عن وجود المشيئة الإنسانية، كلُّ ذلك من شأنه أن يكوّن حقيقةً واضحةً، وهي أنّ مدلولاتِ تلك النصوص تمنح الإنسانَ ساحةً واسعةً من التّصورات الإيجابية، ويردف تلك التّصورات ما يحقّقها على أرض الواقع من الاتّجاه السّديد، والعمل الأَمْثل، والسّلوك الأقوم، وبما ينهض على ذلك كلّه من مفهوم التّكليف والمسؤولية والجزاء.

(١) المصيبة هنا: ما أصيب من المسلمين يوم أُحد من قتل السبعين، وأما المثلان: يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين. انظر: تفسير ابن كثير (٣٧٤/١)، وتفسير أبي السعود (٥٩٣/١).

وإذا كانت كيفياتُ أفعال الله وقدَره ومشيئته في خلقه لا تدخل في نطاق قدرات العقل البشري؛ لأنها خارجةٌ عن حدود إدراكه ووعيه، فإن من المسلّمات الواضحة الناتجة عن هذه الحقيقة أن يتنكّب التفكير الإنساني مزلّة الحكم على العلاقات والنّسب والكيفيات والارتباطات بين المشيئة الإلهية المطلقة والمشيئة الإنسانية المحدودة، والتي يعبّر عنها كسب الإنسان واختياره.

ومن واجب التّفكير الإنسانيّ حينذاك أن يدعَ ذلك كلّه ويَكِلَهُ لعلم الله المطلَق، وتدبيره المطلَق، وحكمته المطلَقة، مع ضرورة اليقين الجازم والطّمأنينة الكاملة بقدر الله ورحمته وعدله وفضله وإحسانه، فاللهُ وحده هو الذي يعلم حقيقة الإنسان، وما أَودَعَ فيه من طاقاتٍ وقُدُراتٍ، وما فطره عليه من نزعات وأشواق، ومدى ما أوجده فيه من خاصيّة الاختيار في نطاق مشيئة الله المطلقة، ومدى ما يترتّب على هذا الاختيار من مسؤولية وجزاء.

وفق هذا المنهج القويم يقع التّوازنُ الدّقيقُ الواعي في تصوّرات الإنسان ومشاعره وتطلّعاته وأشواقه، وبما يصطبغ به ذلك كلّه من الطّمأنينة الكاملة إلى منهج الله جَلَّجَلَالُهُ، والعمل الجادّ المصيب تحت مظلّة ركنيّ المسؤولية والجزاء، وما ينتج عن ذلك من أملٍ كبيرٍ - برحمة الله وفضله - بمصيرٍ طيّب وخاتمةٍ حسنةٍ.

إنّ المسلم عندما يؤمن إيماناً جازماً بقدَر الله أيقن أنّ ما يفيض عليه من نِعَم، وما ينزل به من مصائب أمرٌ مقدّرٌ مرسومٌ، مرادٌ لله، مقضيٌّ بقضائه، واقعٌ بقَدَره وقُدْرته، واطمأنّ لكلّ ما يجري في الكون ممّا لا كسبَ له به، ورضي به مهما كان أمرُه مُحزِناً أو مُسِرّاً، فإن خالقه وبارئه يقول: ﴿**مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

والمؤمن يؤمن أنّ أمرَه كلّه له خيرٌ في حال السّراء والضرّاء، مما يزيده طمأنينةً ورضًى وتسليماً، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه خيرٌ - وليس لأحدٍ إلّا للمؤمن - إنْ أصابته سرّاءُ شكر فكان خيراً له، وإنْ أصابته ضرّاءُ صبر فكان خيراً له»(١).

ولما تشرّب قلب عملاق الإسلام عمر الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الحقيقة عبّر عنها بفهمه الدقيق، وفطنته الواعية؛ فقال: «ما أُبالي على ما أصبحتُ، على ما أُحبّ أو على ما أكره؛ لأنّني لا أدري الخيرةَ لي، فيما أحبّ أو ما أكره»(٢).

«لقد اندفع المسلمون إلى الممالك والأقطار يفتحونها، وقدّموا تضحياتٍ كبيرةً في المال والأرواح، فأدهشوا العقولَ، وحيّروا الألبابَ بما دوّخوا الأممَ، وقهروا الدُّوَل، وامتدت سلطتُهم من جبال بيرينيه - الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا - إلى جدار الصين، مع قلّة عددهم وعُدّتهم، ونشروا في هذه البلاد رسالةَ الإسلام، وأقاموا العدلَ بين الناس بما لم يعرف له التاريخ مثيلاً، وما كان قائدَهم وسائقَهم إلى جميع هذا إلا الاعتقادُ بالقضاء والقدر»(٣).

وفي مقابل ذلك يدرك المؤمن أن ما أصابه من سوءٍ إنّما هو بما كسبت يداه، وقد يكون تكفيراً لذنبه، كما قال تعالى: ﴿**وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشّورى: ٣٠].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما يصيب المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا همٍّ ولا غمٍّ حتّى الشّوكة يُشاكُها إلّا كفّر اللهُ بها من خطاياه»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق (١٣)، باب المؤمن أمره كله خير، حديث (٢٩٩٩).

(٢) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزي (ص١٩٠).

(٣) العروة الوثقى، للشيخ جمال الدين الأفغاني (ص٥٣).

(٤) أخرجه الشّيخان، واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ينظر: صحيح البخاري بشرح فتح الباري، كتاب المرضى (١) باب ماجاء في كفّارة المرض، وقول الله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: ١٢٣]، حديث (٥٦٤١، ٥٦٤٢)، وصحيح مسلم، كتاب البِرّ والصّلة والآداب (١٤)، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك، حتى الشّوكة يشاكها، حديث (٣٧٥٢).

ولهذا كلّه كان الإعراضُ عن الأسباب المأمور بها قدحاً في الشّرع، بيّن لنا ذلك ابنُ القيّم، فقال: «لا تتمّ حقيقةُ التّوحيد إلّا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى... وإنّ تعطيلها يقدح في نفس التوّكل، وإنّ تركها - عجزاً - ينافي التّوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضرّه في دينه ودنياه، ولا بد من هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلّا كان معطّلاً للحكمة والشّرع، فلا يجعل العبدُ عجزَه توكّلاً، ولا توكّله عجزاً....»(١).

لذا فقد أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتّداوي، فعن أسامةَ بن شريكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أتيتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابَه، فكأنّما على رؤوسهم الطّيرُ، فسلّمتُ، ثم قعدتُ، قالوا: يا رسول الله، أَنتداوَى، فقال: «تَداوَوْا، فإنّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يضع داءً إلّا وضع له دواءً، غيرَ داءٍ واحدٍ»، قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: «الهَرَمُ»(٢).

بل إنّ الدّواءَ الذي يشفي من الدّاء هو بحدّ ذاته من قدر الله، فقد سُئل رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أرأيتَ أدويةً نتداوى بها، ورُقى نسترقي بها، وتُقى نتّقيها، هل تردّ من قدر الله شيئا؟ قال: «هي من قَدَر الله»(٣).

ورحمَ اللهُ عمرَ بن الخطّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كم كان حصيفاً في فهمه لهذه الحقيقة، فها هو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمّا خرج إلى الشّام لقيه أمراءُ الأمصار، فأخبروه بانتشار وباء الطّاعون(٤)،

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٦٧/٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، من طريق أسامة بن شريك، وهو شطر حديث عنده. انظر: شرح الأدب المفرد (١٣٨) باب حسن الخلق إذا فقهوا، حديث (٢٩١)، وهو أيضاً شطر من حديث أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطب (١)، باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً، حديث (٣٤٣٦)، وهو حديث كامل بنصه المثبت في المتن، مخرج عند أبي داود والترمذي. انظر: سنن أبي داود، كتاب الطب (١)، باب في الرجل يتداوى (٣٨٥٥)، وسنن الترمذي، كتاب الطب، باب (٢) ما جاء في الدواء والحثّ عليه، حديث (٢٠٣٨)، وقال الترمذي: وفي الباب عن ابن مسعود وأبي هريرة وأبي خزامة عن أبيه وابن عباس، وهذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الطب (١)، باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً، حديث (٣٤٣٧).

(٤) هو المعروف بطاعون عمواس: بفتح العين المهملة والميم، وروي بكسر العين المهملة، وسكون الميم، وقد وقع هذا الطاعون سنة ثماني عشرة للهجرة، ومات فيه أبو عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أمير الشام، ومعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فاستشار المهاجرين والأنصار، ثمّ مهاجرة الفتح من مشايخ قريش، فاجتمع المهاجرة على الرّجوع عن الوباء، وأمر بذلك عمر، فقال له أبو عبيدة: أَفراراً من قدر الله؟! فقال عمر: لو غيرُك قالها يا أبا عبيدةَ، نعم نفرّ من قدر الله، أرأيت لو كان لك إبلٌ هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصيبةٌ والأخرى جدْبةٌ، أليس إنْ رعيتَ الخصيبة رعيتَها بقدر الله، وإنْ رعيتَ الجدبة رعيتَها بقدر الله؟![1]

المبحث الثالث عشر: التّوازنُ بين عبوديةِ الإنسان المطلَقة لله، ومقامِ الإنسان عند الله في الكون:

وهنا يقف الإسلامُ موقفاً معتدلاً صائباً بين إفراط من ألّه الإنسان في صُوَرٍ كثيرةٍ، وتفريطِ من حقّر الإنسان إلى دركة الازدراء والإهانة.

ورضي اللهُ عن الخليفة الرّاشد عمر بن عبد العزيز القائل: «رحمَ اللهُ امرءاً عرف قَدْرَ نَفْسِه»[2]. فالإنسانُ عبدٌ مخلوقٌ لله، لا يمكن مهما بلغ من العلم والقدرة والرحمة والسّعة - وهو لم يكُ شيئاً مذكوراً - أن يُقارب ولوْ درجةً واحدة قَدْر من خلقه ولم يكُ أحدٌ معه.

فللألوهية حقيقة وخصائص تختلف اختلافاً جذرياً عن حقيقية العبودية وخصائصها.

وعدد من الصحابة الأجلّاء. انظر في ذلك: الكامل في التاريخ (٣٩٠/٢، ٣٩١)، وعمواس: ضيعة في فلسطين بالقرب من بيت المقدس، منها كان ابتداء الطّاعون ثم فشا في أرض الشام. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي (١٥٧/٤).

(١) انظر هذا الحديث بكامله في صحيح البخاري بشرح فتح الباري، كتاب الطب (٣٠)، باب ما يذكر في الطاعون، حديث (٥٧٢٩)، وفي نهاية هذا الحديث وفي الحديث الذي قبله والذي بعده ورد ما يؤيد فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه»، وقد أفاض ابن حجر في شرحه لهذا الحديث، وأورد هذه الرواية التي في المتن ابن الأثير في الكامل في التاريخ (٣٩٢/٢).

(٢) أورده الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ في مدارج السّالكين (٣٣١/٢)، فقال: «بلغ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ ابناً له اشترى خاتماً بألف درهم، فكتب إليه عمر: بلغني أنّك اشتريت فصّاً بألف درهم، فإذا أتاك كتابي فبعْ الخاتم وأشبع به ألف بطن، واتّخذ خاتماً بدرهمين واجعل فصّه حديداً صينياً، واكتب عليه: رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه».

وآياتُ القرآن الكريم تحسم هذه القضية حسماً فاصلاً مبيناً، فاللهُ عَزَّوَجَلَّ لا يمكن أن يشاركه أحدٌ من مخلوقاته - ومنها الإنسان - في شيءٍ البتة، لا في ماهيّةٍ، ولا في بقاءٍ، ولا في سلطانٍ، ولا في خَلْقٍ، ولا في رزقٍ، ولا في علمٍ، ولا في مقامٍ، ولا في تشريعٍ، فالله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشّورى: ١١].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرّحمن: ٢٦، ٢٧].

و﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

و﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزّمر: ٦٢].

و﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرّعد: ٢٦].

و﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٦].

و﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشّورى: ٢١].

فالإنسانُ عبدٌ لله، شأنُه في ذلك شأنُ كلِّ مخلوقٍ في هذا الوجود لا يشاركُ اللهَ في حقيقةٍ ولا خاصيّةٍ، وفي هذا المبدأ والمفهوم يتفرّد الإسلامُ عن غيره من المِلَلِ الأُخرى، سواء أكانت سماويّةً فدخلها التّحريفُ كالنّصرانية واليهودية، أمْ أرضيةً اخترعها البشرُ بنقصهم وغَفلتهم، فدخلها السَّفَهُ والإسْفافُ بأجلَى معانيهما.

كيف يمكن أن تجتمع المسيحيّةُ المحرَّفةُ مع الإسلام في الحقيقة التي تحدّثنا عنها آنفاً، والكنيسةُ تقول عن المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنّه الإلهُ، أو ابنُ الإلهِ، على اختلاف مذاهبهم وتصوّراتهم، كما بيّنه القرآن بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التّوبة: ٣٠].

لقد أرادت مع أتباعها أن ترفعه وتكرّمه، فخلعت عنه عبوديّتَه وأضافت له لاهوتيةً ليست له[1]

(١) ينظر المعنى الأخير في: أقانيم النصارى، أحمد حجازي (ص٦٠).

والإسلامُ وهو دينُ اللهِ السّائرُ السّائدُ مع جميع الأنبياء والرُّسل من أوّلهم إلى خاتمهم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، يقرّر قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

ويقرّر عن عيسى ابن مريم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ما يلي: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الزّخرف: ٥٩].

﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [النّساء: ١٧٢].

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

وكذلك في المقابل: لا يليق تصغير الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عندما يُراد رفع الإنسان وتعظيمه وتكريمه، وإعلان سيطرته وفاعليته في هذه الأرض، وبخاصة عندما يكتشف سرّاً من أسرار المادة، أو يستنطق طاقة من طاقات الكون كانت كامنةً محجوبةً، فمَن الذي خلق المادةَ وأسرارها وفتح منها للإنسان ما فتح ؟! ومَن الذي خلق الكون وما فيه من طاقاتٍ هائلةٍ، وفجّر من هذه الطاقات للإنسان ما فجّر؟!

الأساطيرُ التي تسلّطت على عقول الأوربيين وانتقلت للأمريكيين بعد مدّة من الزّمن - سواء أكانت أساطيرَ عبريةً أم إغريقيةً، والتي ظلّت تسيطر على تصوّراتهم وأفكارهم حتى بعدما دخلوا في المسيحيّة - هي التي ساقت لهم أمراً في غاية الإسفاف والخطورة، وهو أنّ اللهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ والإنسانَ كُفُوان أو ندّان أو متصارعان، يغلب أحدُهما الآخر ويهزمه، أو يتفوّق عليه لترجح كفّته على كفّته.

فالأسطورةُ العبريّة تصوّر الإلهَ خائفاً من أن يأكل الإنسانُ من شجرة الحياة - بعد ما أكل من شجرة المعرفة - فيصبح واحداً من الآلهة، فيطرده من الجنّة، ويضرب دونه ودون شجرة الحياة حُرّاساً شِداداً غِلاظاً بسيوفٍ حادّة قويةٍ لا تُرحم.

والأسطورةُ الإغريقيةُ التي تصوّر كبير الآلهة «زيوس» غاضباً على الإله «بروميثيوس»؛ لأنه سرق سرّ النار المقدّسة «سر المعرفة» وأعطاه للإنسان خفيةً عن كبير الآلهة،

ولم يكن للإنسان أن يعرف؛ لئلّا يرتفع مقامُه فيهبطَ مقامُ كبير الآلهة ومقامُ سائر الآلهة، لذا فقد تركه لأفظع وأشنع انتقام[1].

وهذا هو «نيتشة»[2] يُطلق لأوهامه الخيالَ، فيُعلن - كالذي أصابه الصرّع - «موت الإله» ومولد الإنسان الأعلى «السُّوبرمان»[3].

وصدقُ اللهُ العظيم القائل: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥].

وكلُّ إناءٍ بما فيه ينضح، فأين هذه الأساطير الكاذبة من الحقيقة الصادقة الناطقة التي أعلنها الإسلام بلسان القرآن الذي جعل كرامةَ الإنسان بعبوديته لله، وشرّف الإنسانَ بنفخة الله فيه من روح الله؟! وما نال هذا الوسامَ الممتازَ من بين سائر المخلوقات إلّا الإنسانُ، حتّى أنّ اللهَ يأمر الملائكةَ - الذين لا يعصون الله ما أمرَهم، وهم أقرب عباده المقرّبين - أن يسجدوا لهذا الإنسان سجودَ التّكريم والإجلال، بل جعله خليفتَه في أرضه، وسخّر له الأرضَ وما فيها، وهو كائنٌ مُبجَّلٌ محسوبٌ حسابه في تصميم هذا الكون قبل أن يكون: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحِجْر: ٢٨ - ٣٠].

---

(١) ينظر: الإغريق بين الأسطورة والإبداع، ثروة عكاشة (ص٣٧٦)، محمد مندور شيخ النقاد في الأدب الحديث، د. محمود السّمرة (ص٥٣)، وأبو القاسم الشّابي، ريتا عواد (ص٦٣).

(٢) نيتشة: فيلسوف وشاعر ألماني، ولد سنة (١٨٤٤م)، كان يُدعى «القسّيس الصغير»، حيث بدأ طفلًا متديّناً كابنٍ لقسٍ بروستانتي، وعندما شبّ انقلب رأساً على عقبٍ، فكان صاحب فلسفةٍ إلحاديّةٍ، مجّدت القوة والقسوة، وأفرزت الفاشيّة والنّازيّة، مات سنة (١٩٠٠م). ينظر: نيتشة، د. عبد الرحمن بدوي (ص٣١، ٣٢، ٤١ - ٤٢)، وملحدون محدثون ومعاصرون، د. رمسيس عوض (ص١٨)، ونيتشة، ترجمة جورج ميخائيل ديب (ص١٨٦)، والكتاب المقدّس ونظريّات العلم الحديث، ترجمة نظير عريان ميلاد (ص٥٩).

(٣) قراءة في الفلسفة العدمية لنيتشة، نضال البيابي (ص١ - ٣)، الصرّاع في الوجود، بولس سلامة (ص٢١٧)، وملحدون محدثون ومعاصرون (ص٢٢، ٢٥)، وجواب المسيحيّة على الإلحاد الشّيوعي، د. عزّت زكي (ص٧١)، ودراسات في علم اللّاهوت (ص١٥٦ - ١٥٨).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٣].

إن أصدقَ حالات وجود الإنسان، وأقومَ مصداقيّة فطرته، وأحسنَ درجات كماله، حين يحقّق مقامَ العبوديّة الخالصة لله، ولذلك كانت غايةَ الوجود الإنسانيّ العبوديةُ لله وحدَه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: ٥٦].

وهذا المقام الرفيع كان مَعْقِدَ جلال وجمال الوصف الرّبانيّ، ونسبته إليه في مقامٍ حازَه أحبُّ الخلق وأكرمُ الخلق، إنّه مقامُ الوحي ومقامُ الإسراء والمعراج: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ولذلك فإنّ خير من ترجم لنا هذا المقام السامي - مقامَ العبودية لله - هو رسولُ الله ﷺ، ومِن قَبله جميعُ أنبياء الله ورُسله، ومِن بعدهم جميعاً صحابةُ رسول الله ﷺ، ألم نسمعْ ربعيَّ بنَ عامرٍ رضي الله عنه، وهو جنديٌّ من جنود الإسلام، وليس قائداً من قُوّاده، يرسله سعدُ بن أبي وقّاص رضي الله عنه قبل وقعة القادسيّة رسولاً إلى رستُم قائدِ جيوش فارس وأميرهم، وهو يقول لرستم: «اللهُ ابتعثَنا لنُخرجَ مَن شاء مِن عبادةِ العبادِ إلى عبادة الله»[1]. وكان النّصر حليفَ جيش الإسلام الذي حقّق العبودية الصّادقة لله.

ومِن قبلُ قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، فاروقُ هذه الأمّة وعملاقُ الإسلام: «إنّا كُنّا أذلَّ قومٍ، فأعزّنا اللهُ بالإسلام، فمهما نُطلب العزّةَ بغير ما أعزّنا اللهُ به، أذلّنا اللهُ»[2].

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير (٤٦٣/٢)، والبداية والنّهاية، لابن كثير (٦٢١/٩، ٦٢٢).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان (٢٣٧/١)، حديث (٢١٤)، وأورده ابن كثير في البداية والنهاية (٥٥/٤).

والإسلامُ: هو التّرجمةُ العمليّةُ الصّادقةُ للعبوديّة الخالصة لله.

وفي هذا المقام أقول: إنّ خيرَ ما يعصمُنا ويعصمُ النّاسَ جميعاً على اختلاف مِلَلهم ونِحَلِهم وأفكارهم ومذاهبهم من عبوديّة بعضهم لبعض، وخيرَ ما يحفظ لهم كرامتَهم على اختلاف مراكزهم ومناصبهم، وخيرَ ما يرفعون به جباهَهم فلا تنحني إلّا لله، ولا يذلّ بها أصحابُها إلا لله، وخيرَ ما يكفيهم عن الاستكبار في الأرض بغير الحقّ، والعلوّ فيها والفساد، وخيرَ ما يجعل قلوبَهم تستجيش حبّاً لله - الذي تتساوى أمامَه وعنده كلُّ رؤوس العباد، فلا فضلَ لأحدٍ على أحدٍ، ولا كرامةَ لأحدٍ على أحدٍ إلّا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وهذه حقيقةٌ لا يعلم وجودَها في العبد إلا اللهُ الذي يمنع منعاً باتاً أن يدّعيَ أحدُ العبيد لنفسه أيّاً من خصائص الألوهية، فَيُنَصِّب لنفسه الحقَّ في سَنّ تشريعٍ يخالف شرعَ الله، أو يجعل نفسَه مصدراً للأمر والنّهي والسّلطان والتّشريع بغير سلطانٍ من الله - إنّ خيرَ ما يعصِمُ من ذلك كلّه هو العبوديّةُ الصّادقةُ الخالصةُ للهِ وكَفَى.

وذلك وفقَ التّوازن الدّقيق الذي بيّناه بين علوّ مقام الله بالأُلوهيّة، وكرامة الإنسان بالعبوديّة.

المبحث الرابع عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين عُبوديّةِ الإنسان المُطلَقةِ لله، ومقامِ الإنسانِ الكريمِ عندَ الله في الكون:

مما لا شكّ فيه أنّ مقامَ العبوديّة لله - كما أسلفنا آنفاً - يُعدّ مقامَ رفعةٍ للإنسان، رفعةٍ في دينه، رفعةٍ في أخلاقه، رفعةٍ في أقواله، رفعةٍ في أعماله؛ لأنّ ذلك كلّه متحقّقٌ لا محالةَ في إطار التّنفيذ العملي لحقيقة العبودية، وإذا كان الإنسان عبداً لله وحده في كلّ ما تقدّم فهو يحقّق أرفعَ حالات الكمال البشري، وأصدق حالات الوجود الإنساني.

وهذا المقامُ بهذه الصّفة كان سمةَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في واقع حياته وسيرته كلّها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن هنا خاطبه ربّه بهذه الصفة عندما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النّجم: ١٠].

ورسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوةٌ حَسَنةٌ للمؤمنين من عباد الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومقامُ العبوديّة لله هو الذي جعله اللهُ غايةَ الوجود الإنسانيّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريات: ٥٦]، فقيامُ النّاسِ جميعِهم بهذا المقام هو الذي يؤصّل ويحقّق عبوديّتَهم الصّادقة لله، ويعصمهم إذْ ذاك من عبودية بعضهم لبعض، وهو الذي يحفظ كرامتَهم، ويحقّق مفهوم العزّة بمعناها الإيجابيّ، فلا تنحني جباهُهم إلّا لمن خلقَهم ورزقَهم، وبيده سقمهم وشفاؤهم ومحياهم ومماتهم ومصيرهم، وعند ذلك تذبل أو تموت دوافعُ وأسبابُ الاستكبار في الأرض والعُلوّ والفساد، فالقلوب تستجيش حبّاً لله، وتقوى لله، وإخلاصاً لله، فتتساوى الرؤوس تحت مظلّة العبودية لله، وهي مرفوعةٌ بعزّة الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ولا يمكن لأحدٍ أن يدّعي أنّه مصدرُ السّلطان، وأنّ إرادتَه شريعةٌ لبني الإنسان.

المبحث الخامس عشر: التّوازنُ بين مصدريّ العلم والمعرفة: الوحي الإلهيّ والعقل الإنسانيّ:

الحقُّ الذي يَسنُده الواقع في هذه القضية أنّ الإسلام لم يُغفل أيَّ واحدٍ من مصدري المعرفة: الوحي والعقل، بل أعطى كلَّ واحدٍ منهما اعتباره، ووضعه في مكانه الذي يستحقّه مع صاحبه ونصيره، ودرجته التي هي له، في توازنٍ دقيقٍ وطمأنينةٍ فائقةٍ، فلا قيمةَ في ذلك عنده لهوًى، أو جهلٍ، أو قصورٍ، أو تعسّفٍ، وسائقه إلى ذلك أمرٌ هو أصل الحقائق وأساسها: وهو أنه يردّ الأمرَ كلَّه إلى الله - في بدايته وخاتمته وإرادته وحكمته وتدبيره - ويردّ الخلقَ كلّه إلى الله وإرادته وحكمته وتدبيره، ومن هذا الخلق: الإنسانُ وعقلُه وفكرُه ومداركُه، وهو فردٌ في منظومة الكون وما فيه، ومِنْ ثَمّ فلا نجد تناقضاً البتة في أن يكون للكون بما فيه وللحياة بما فيها دورٌ في إمداد الإنسان بالمعرفة عن طريق «العقل»، ومفتاحُه في ذلك مداركه والحواسُّ المحيطة به، والكلّ من خلق الله، ومن عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما أنّ الوحيَ من عند الله كذلك.

وإذا كان الوحيُ هو المصدرُ الوحيد الصّادق المجسّد للإسلام «قرآناً وسنةً»، والنّاطقُ الرسميُّ عمّن رضيه لنا ديناً، وهو اللهُ القائل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فإنّه لا يمكن أن يخضع بذلك لأيّ هوًى، أو أن يتأثر بأيِّ تبعيّةٍ مذهبية أو فكرية أو سياسية أو اقتصادية، ومن ثَمّ فهو أعلى المصادر وأرقاها، ولكنه في الوقت ذاته لا يُلغي العقلَ[1]، إذْ كيف يمكن أن يكون، والعقلُ مفتوحٌ على صفحة الكون الرّحب - الذي هو كتابُ الله المنظورُ - يصبّ المعرفةَ فيه - كما يصبّها الوحيُ - ولكن مع فارقٍ جوهريٍّ واحدٍ: هو أنّ معارفَ الإنسان الواردة من الوحي يقينيّةٌ، وأمّا الواردة من الكون ظنيّةٌ قابلةٌ للخطأ كما للصّواب.

وهنا يجب أن نعيد إلى ذاكرتنا أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق الإنسان متوافقاً في فطرته، ومن موقعه في منظومة هذا الكون، وهو كسائر أفراد وجنود هذا الكون خلقٌ من خلق الله، والكُلّ مُتلقٍّ عن الله، متمتعٌ بهداه.

وآياتُ الله في كتابه المجيد تبيّن وتؤكّد هذه الحقيقةَ، فلْنقرأْها بتمعُّنٍ وتدبّرٍ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: ٥٣].

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ [الشّورى: ١١].

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذّاريات: ٤٩].

(١) فكر ومباحث (ص٧٨).

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ - ٣].

ومع تلكمُ المنظومةُ الرّائعة نجد التّعاونَ والتّواؤم والتآنُس بين أفراد هذه المنظومة - ومنها الإنسان - مما يدلّ دلالةً واضحةً على وجود الوحدة والتّضامن الذي طبع اللهُ عليهما هذه المكوّنات، وهي تتّجه بدورها إلى تحقيق المنافع العاجلة للإنسان، بل وكأنّها تتنافس في رِفادة ما يغذّي سيادةَ وريادةَ هذا المِلك وتجعله يعيش بقوّةٍ وعافية ورفاهيّة وسعادة، وآياتُ القرآن كثيرةٌ هي التي تنطق بهذه الحقيقة الناصعة، نقتطف بعضاً من زهورها ورياحينها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣].

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ * وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: ٦٥ - ٦٩].

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ * وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠ - ٨١].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النّبأ: ٦ - ١٦].

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٣].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

وبناءً على ما سبق فإنّنا نحصُد نتيجةً مهمّةً في هذا المقام، وهي أنّ هذه العناصرَ المهمّةَ «الكونُ والحياةُ والأحياءُ» تشكّل رافداً قوياً من روافد المعرفة لهذا الإنسان - بعد وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - بل إنّ الإنسانَ نفسَه يشكّل مصدراً من مصادر المعرفة لنفسه، ألم يقلِ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذّاريات: ٢٠، ٢١].

وضرورةُ التّلقّي عن الوحي هي أهمُّ الضّروريات؛ لأنّها تمثّلُ النّبعَ الصّادقَ الصّافيَ الثّرّ، وهي المهيمنةُ على سائر مصادر المعرفة، جسّد لنا هذه الحقيقة آياتٌ كثيرةٌ، ومنها: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٢، ٣].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

وكذلك آياتٌ كثيرة تفتح معارفَ في صفحات الكون نراها ونشعر بها، بل نتمتّع بها: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشّورى: ٣٢، ٣٣].

وكذلك فإنّ العقل - كما ذكرنا - من مصادر المعرفة للإنسان يتدبّر حقائقَ الوحي وحقائقَ الكون، وحقائقَ الحياة، فيتوصّل بها إلى الإيمان اليقينيّ بحقيقة وجود الله ووحدانيته، وحقيقةِ القرآن وإمامته، ورسالةِ محمدٍ ﷺ ونبوّته، واليومِ الآخر وهيبته.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النّساء: ٨٢].

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦].

وهكذا تقوم هذه العناصرُ النَّشِطةُ في قائمة الوجود «الكونُ - الحياةُ - الأحياء: ومنها الإنسانُ» كمصادرَ مهمّةٍ من مصادر المعرفة لهذا المخلوق البشري «الإنسان» - بعد وحي الله الذي أعطى كلَّ شيء خلْقَه ثم هدى - بتناسقٍ وتوازنٍ جِدُّ دقيق، يحقّق تصوّراً صحيحاً عدْلاً في الإدراك البشريّ لكلّ ما يجول في تصوراته من حقائقَ وسننٍ تنطبع كلّها بطابع الصِّبغة الخالصة لله، إنّها صِبغةُ اليقين الجازم بدَيمومة الإله الأحد، الحيّ، القيّوم، الصّمد، وأعتقد جازماً أنّ هذه أعظمُ نتيجةٍ تلدها حقيقةُ التّعانق الرّائع بين أفراد المنظومة الفذّة «الكون، الحياة، الإنسان» مع ما تتّسم به جميعها من تغيّر مستمرٍّ، وهذا أمرٌ ينسجم مع أعظم حقيقة في الوجود وهو أنّ الجميع من خلْق اللهِ لا ريبَ فيه.

وهناك أيضاً أمرٌ جليلٌ نستشفه ممّا سبق: تغيّر عناصر الوجود يحكمه سننٌ ثابتةٌ وناموسٌ ثابتٌ، يتمّ وفقه وبه ذلك التّغير والتبدّل، وهذا بدوره يُدلي بحقيقة ساطعة، وهي أنّ الأمور لا تسير سبَهْلَلا، والحياة لا تمضي جزافاً، والإنسان لم يُخلق عبثاً، وإنّما هو التّدبير الإلهيُّ: تكليفٌ وابتلاءٌ، ثمّ مسؤوليةٌ، ثمّ جزاءٌ، والمصيرُ بيد الله وإلى الله.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ * ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك: ١، ٢].

﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وهكذا يقوم الوحيُ الإلهيُّ على ساقٍ قويّةٍ، كمصدرٍ أساسٍ للمعرفة الإنسانية مع حفاوةٍ منه بالعقل الذي ميّز الله به الإنسان، مع ما يتّسم به من إدراكٍ له دورُه في حياة الإنسان وتصوّراته الصّحيحة عن «الكون والحياة والإنسان»، وهذا التّوازن والتّواؤم والتّكامل والتّميّز في الأداء الوظيفيّ لكلّ عنصرٍ من تلك العناصر نجده واضحاً جدّاً - كما رأينا - في دين الله، في وحي الله، في كتاب الله، في كون الله، مما لا نجده حقيقةً في أيّ تصوّرٍ يَنِدُّ عن هذا التّصوّر الإسلاميّ، سواء أكان من تحريفٍ وقع من البشر لدينٍ أنزله اللهُ عليهم، أم لدينٍ نَسَجَتْ خيوطَه اليدُ البشريةُ الضّعيفة النّاقصة.

المبحث السادس عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين مصدريّ العلم والمعرفة «الوحي الإلهيّ والعقل الإنسانيّ»:

إنّ مِن أُولى الحقائق التي يخطّها هذا التوازن أنّه يرسُم خريطةَ التّفكير الإنسانيّ والعواطف والوجدانيّات القلبيّة الإنسانيّة وفق منهجٍ معتدلٍ يريح النّفسَ، ويسكُب فيها الطُّمأنينةَ والسّكينةَ، ذلك أنها أصبحت تؤمن إيماناً جازماً أنّ الأمرَ كلَّه لله: إرادةً، وتدبيراً، وحكمةً، وأمراً، ونهياً، ومَرَدَّ الخلق كلّه إلى إرادة الله وتدبيره وحكمته، وعندما يُستصحَبُ مع هذا الإيمان إيمانٌ آخر بأنّ وحي الله لا يمكن أن يخضع لهوًى أو يتأثّر به، فإنّ صاحب هذا الإيمان يسارع لينزع من نفسه أيّ هوًى يخالف دينَ الله، وشرعَ الله، وأمرَ الله، وليخضع بهواه لما جاء عن الله قرآناً كريماً، وسنّةً نبويّةً شريفةً، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ [النّساء: ٦٥].

وعند ذلك أيضاً لا يمكن أن يؤلّه العقلَ أو يعطيَه مساحةً لا يستوعبها فكرُه وإدراكُه؛ لأنّ ذلك استهزاءً به وسُخريةً منه، ولكنّه يحترم العقلَ ويبجّله عندما يُعمله في حدود إمكانياته وقدراته، وهنا سيرقى به إلى معارفَ توصله إلى حقائق جليّة عن خالقه وعن الكون والحياة، وبذلك يُدرك دوره ورسالته في الحياة كعنصرِ فعّالٍ نشِطٍ، يتمتّع بالتّلقّي عن الله، كما يتمتّع بهُداه.

المبحث السّابع عشر: التّوازنُ في صلة العبد بخالقه ما بين الخوفِ والرّهبةِ من اللهِ، والرّجاءِ والطُّمأنينةِ والأُنسِ بالله:

هذا الأصلُ من أصول التّوازنات الدقيقة، والذي يُعَدّ صِبغةً مهمّةً في حياة الإنسان، وذلك أنّ الكونَ والحياةَ والإنسانَ كُلُّ أولئك مخلوقٌ لله، فلا بدّ إذْ ذاك من أن تظهر فيهم صفاتُ الله الفاعلة المدبِّرة، ومن صفات الله جَلَّجَلَالُهُ ما يهزّ الأفئدة، ويزلزل الأركان، ويذهب بالجَنان، سطّرها لوحُه المسطور في قرآنه المجيد، ولوحُه المنظور في كونه المعمور؛ ليتفاعل معها الإنسان ويرى مدى قدرةَ الله، وعظمةَ الله، وجبروتَ الله، وكبرَ الله، وانتقامَ الله، فينتبه ويتحفّز ويحذر، ويحسب ألفَ ألف حساب، ففي كتاب الله المسطور نقرأ مِنْ مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقر: ٢٣٥].

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٩، ٣٠].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا * يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمّل: ١١ - ١٤].

وغيرُها آياتٌ قرآنيةٌ كثيرةٌ، تعرض صور العذاب الربّاني في مشاهد القيامة وأحوالها وأهوالها، وهي مُرعبةٌ مُفزعةٌ.

ونظيرُ ذلك آياتٌ قرآنيةٌ تَسكُبُ في قلب قارئها الطّمأنينة والرّاحة والأمل برحمة الله وعفوه وفضله وإحسانه، ومن هذه الآيات قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: ٦٢].

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النّساء: ٢٨].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التّغابن: ١٦].

وآياتٌ كثيرةٌ كثيرةٌ هي التي تفتح أمامَ الإنسان منافذ الأمل الفسيح برحمة الله، وعفو الله، وفضل الله وإحسان الله، لا مجال هنا لسردها، ولكنِ اقْرأْها وتدبّرْها فستجد فيها بُلغتَكَ وشفاءكَ.

المبحث الثّامن عشر: الآثارُ التّربويّةُ المترتّبةُ على التّوازنِ ما بين الخوفِ والرّهبةِ من اللهِ، والرّجاءِ والطُّمأنينةِ والأُنسِ باللهِ:

مراعاة هذا التوازن بقطبيه، وتحقيقه في واقع الإنسان، يجعله يسير في حياته بخطىً ثابتةٍ، وبصيرةٍ نافذةٍ، وقلبٍ حيٍّ، وعقلٍ رشيدٍ، ويستشعر بمدد الله له ورعايته له، ورحمته وإحسانه به وفضله عليه، ويوقن أنّ الله لا يريد أن يوقعه في حرجٍ ولا مشقّةٍ ولا عَنَتٍ، ولا يريد به انتقاماً ولا إذلالاً - تعالى اللهُ عن كلّ ذلك علُوّاً كبيراً - وهو في الوقت ذاته لا يغفل عن خالقه، ولا يستهين بدينه، ولا يستهتر بأحكامه.

هذا التّوازن الذي نراه ونلمسه في واقع حياة المسلم، لا نراه متحقّقاً ولا موجوداً أصلاً في أيِّ تصوّرٍ، سواء أكانَ لدينٍ سماويٍّ حرّف فيه أهلُه وزوّروا حقائقه كما فعل اليهودُ والنّصارى، أم لملّةٍ أو نِحلةٍ أو فلسفةٍ اخترعها البشر، ونسجوا خيوط أحكامها من ذوات عقولهم التي مهما سَمَتْ فهي في واقعها قاصرةٌ محدودةُ الأفق والقُدرات، وكما هو الحال عند الفرس الوثنيين، أو الإغريقيين أو أرسطو وأفلاطون وسقراط، أو غيرهم من الماديّين الملحدين.

فالإلهُ كما ترسمه تصوّراتُ بني إسرائيل المنحرفة إلهٌ خاصٌّ بهم دون غيرهم، فإذا وجد منهم عبادةً متوجّهةً لآلهة غيره ثارَ وغضب ودمّر وانتقم، ثم إذا آبَ إليه شعبُه رضي وأقلع عن غضبه وتدميره، وندم على ما فعله بهم[1].

أمّا تصوّرات النّصرانية الكَنَسية، فلم تكن أحسنَ حالاً من زميلتها اليهودية، بل كانت أشدّ وطئاً وأسوأ قيلا، فقد تلبّستِ النصرانيةُ في الإمبراطوريّة الرّومانيّة، أو هذه تلبّست بتلك، حيث كانت الدولةُ الرومانيّةُ الوثنيّةُ في أشدّ وثنيّتها وانحلالها، فتسلّلت النّصرانيةُ فيها، وغزتْ أوصالَها حتّى استطاعت أن تولّي قسطنطين إمبراطوراً في سنة (٣٠٥م)، حتى تمكّنتِ النّصرانيةُ من أن تكون دينَ تلك الإمبراطورية،

(١) ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٥٠٢/١).

ولكنّ العجبَ العُجاب أنّ النّصرانيةَ نفسَها أصبحتْ خاضعةً للوثنيّة الرومانيّة، وهذا ما صوّره لنا الكاتب الأمريكي: «درابر» في كتابه: «الصّراع بين الدِّين والعلم» عندما قال: «دخلتِ الوثنيّةُ والشّركُ في النّصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلّدوا وظائفَ خطيرةً، ومناصبَ عاليةً في الدّولة الرّومانية بتظاهرهم بالنّصرانية، ولم يكونوا يحفلون بأمر الدّين، ولم يُخلصوا له يوماً من الأيام، وكذلك كان قسطنطين، فقد قضى عمرَه في الظّلم والفُجور، ولم يتقيّد بأوامر الكنيسة الدينية إلّا قليلاً في آخر عمره سنة ٣٣٧م»[١].

وشهادةُ حقٍّ ينطق بها هذا الكاتبُ، فيقول: «إنّ الجماعةَ النصرانيّةَ، وإن كانت قد بلغت من القّوة بحيث ولّت قسطنطين الملك، ولكنّها لم تتمكّن من أن تقطع دابر الوثنيّة، وتقتلع جرثومتها، وكان نتيجة كفاحها أن اختلطت بمبادئها، ونشأ من ذلك دينٌ جديدٌ تتجلّى فيه النّصرانيةُ والوثنيةُ سواءً بسواء... هنالك يختلف الإسلامُ عن النّصرانية، إذ قضى على منافسه الوثنية قضاءً تامّاً، ونشر عقائده خالصةً بغير غبش»[٢].

والواقع يشهد بأن هذه النصرانية الملقحة بالوثنية المشوّهة التي فقدت روحها وجمالها لم تستطع أن تغيّر من سيرة الروم، وأن تبعث فيهم حياة جديدة، حياة دينية نقية طاهرة تجمع بين الخوف من الله والأنس به سبحانه، بل إنها ابتدعت رهبانية لعلّها كانت شراً على الإنسانية والمدنية من بهيمية روما الوثنية[٣].

وفي المقابل نجدها تقوم في سيرتها على إدراك ماديٍّ محضٍ للحياة والحضارة، وإن كانت مادّتهم قد هُذّبت بذوقٍ عقليٍّ، ولكنها بعيدة عن جميع القيم الروحيّة[٤].

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبوالحسن الندوي (ص١٦٦، ١٦٧)، وكواشف زيوف، د. عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني (ص٣٤، ٣٥).

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبوالحسن الندوي (ص١٦٦، ١٦٧)، وكواشف زيوف، د. عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني (ص٣٤، ٣٥).

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (ص١٦٥) بتصّرف.

(٤) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد (ص٣٨، ٣٩).

ومن خلال ما تقدّم يمكن أن نقول: إنّ الأساطير الوثنية والتّصورات الفلسفية قد أغرقت النصرانيةَ في مستنقعٍ من التّصورات والعقائد الفاسدة التي لا يقبلها مَن به مِسكةُ عقلٍ بشريٍ، وابتعدت بأبنائها عن التّوازن والاعتدال وأخذت بأيديهم لطرفين كلاهما مُرٌّ، إفراط أو تفريط، فكيف يمكنهم بعد ذلك أن يدّعوا بأنهم أصحابُ عقيدةٍ صحيحةٍ بالله؟!

وبعد هذا البيان - ومن منطق التّوازن الذي نحن بصدده - نصل إلى نتيجةٍ حتميّةٍ لازبةٍ لامناصَ منها، وهي أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شاء برحمته وفضله وإحسانه على البشرية أن ترسوَ في نهاية المطاف على دينٍ خاتمٍ حقٍّ، ليس فيه أيُّ تدخّلٍ بشريٍّ متهوّرٍ أحمقٍ، يُحمِّل ما لا يحتملُ، ويأتي بتصوّراتٍ ومبادئ وعقائدَ نسجتْها أَخْيِلَةٌ بشريةٌ أُسطوريةٌ، تتلبّس بخلافاتٍ: سياسية، وعنصرية، وطائفية، وتُلبِسُها بالأساطير الوثنيّة والتصوّرات الفلسفيّة.

تنزّه اللهُ الأحدُ أن يكون دينُه القويمُ على تلك الشّاكلة المهترئة المتخبّطة، بل هو كما قال جَلَّجَلَالُهُ في وصف دينه: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

﴿**ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الرّوم: ٣٠].

﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ**﴾ [الرّوم: ٤٣]، وصدقَ اللهُ العظيمُ.

فهرس المصادر والمراجع

- **إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر**: للشيخ أحمد بن محمد البنّا، تحقيق: د. شعبان محمد إسماعيل، طبع عالم الكتب، بيروت، ومكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م).
- **الأدب المفرد**: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة (١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
- **أساس البلاغة**: محمود بن عمر جار الله الزمخشري، القاهرة، دار الكتب، الطبعة الأولى (١٣٤١هـ - ١٩٢٢م).
- **الإسلام على مفترق الطرق**: محمد أسد، ترجمة: د. عمر فروخ، نشر دار العلم للملايين.
- **أصول الفكر التّربوي في الإسلام**: عباس محجوب، دمشق، دار ابن كثير (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).
- **الإغريق بين الأسطورة والإبداع**: ثروة عكاشة، دار المعارف (١٩٧٨م).
- **أقانيم النّصارى**: د. أحمد حجازي السقا، دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الأولى (١٣٩٧هـ).
- **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**: لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن تيمية، تحقيق وتعليق: د. ناصر عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد، الرياض.
- **البداية والنهاية**: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم، وعلي نجيب عطوي، وفؤاد السيد، ومهدي ناصر الدين، وعلي عبد الساتر، طبع دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)، وطبعة المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، مراجعة وتنقيح: الشيخ خالد محمد محرم (١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- **تربية الأطفال في ضوء القرآن والسنة**: يوسف بديوي، ومحمد محمد قاروط، دمشق، دار المكتبي، الطبعة الثانية (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م).

- **تفسير الزمخشري = الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، طبع دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ الطبع.
- **تفسير ابن عطية = المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: للقاضي أبي محمد عبد الحق ابن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: المجلس العلمي بمكناس، طبع دار الكتاب الإسلامي، القاهرة (١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م).
- **تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم**: للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء، إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)، طبع دار المعرفة، بيروت (١٣٨٨هـ- ١٩٦٩م).
- **تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**: للعلّامة أبي السعود ابن محمد العمادي، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت، دون تاريخ طبع.
- **تفسير الآلوسي = روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**: لأبي الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي، طبع دار الفكر، دون تاريخ الطبع.
- **تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن**: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد عبد الحليم البردوني، طبع دار إحياء التراث العربي، بيروت (١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).
- **التّفكير الفلسفي في الإسلام**: د. عبد الحليم محمود، طبع دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة (١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م).
- **التوقيف على مهمّات التعاريف**: محمد عبد الرّؤوف المناوي، تحقيق: د. محمد رضوان الدّاية، بيروت، دار الفكر المعاصر (١٤١٠هـ- ١٩٩٠ م).
- **جواب المسيحية على الإلحاد الشيوعي**: د. عزت زكي، المؤلف: رومبراند رتشارد، دون تاريخ الطبع.
- **درء تعارض العقل والنقل**: لشيخ الإسلام ابن تيمية أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الحادية عشر (١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م).

- **دراسات في علم اللاهوت**: بولس عطية بسليوس، المساهمون: تاوضروس، مورس، محرقي، بنيامين، منشور (٢٠٠١م).
- **دور التربية في حماية الأبناء من الإرهاب**: د. سارة عيادة الخمشي، كلية الخدمة الاجتماعية، المملكة العربية السعودية، دون تاريخ الطبع.
- **الرّوض الأُنُف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**: لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي السهيلي، ومعه السيرة النبوية لابن هشام، تقديم وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، طبع شركة الطباعة الفنية المتحدة، نشر: مكتبة الكليات الأزهرية، دون تاريخ الطبع.
- **زاد المعاد في هدي خير العباد**: لابن قيم الجوزية، طبع: المطبعة المصرية ومكتبتها، دون تاريخ الطبع.
- **سنن الترمذي**: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي (ت: ٢٩٧هـ)، بتحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة. وبتحقيق وتخريج وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبع: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م)، وبتحقيق: إبراهيم عطوة عوض، طبع: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية (١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م).
- **سنن أبي داود**: لأبي داود سليمان الأشعث السجستاني الأزدي، ومعه كتاب: «معالم السنن» للخطابي، إعداد وتعليق: عزت عبيد الدعاس، وعادل السيد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى (١٣٩٣هـ- ١٩٧٣م).
- **سنن ابن ماجه**: للحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق وترقيم وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبع: دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ الطبع.
- **السّيرة النبوية = البداية والنّهاية**: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، تحقيق: د. أحمد أبو ملحم، وعلي نجيب عطوي، والأستاذ فؤاد السيد، ومهدي ناصر الدين، وعلي عبد الساتر، طبع دار أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، طبع دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية (١٣٩٨هـ- ١٩٧٨ م).

- **شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم**: لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض.
- **شرح العقيدة الطحاوية**: للإمام علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الدمشقي، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).
- **صحيح البخاري بشرح فتح الباري**: محمد بن إسماعيل البخاري أبي عبد الله (ت: ٢٥٦هـ)، شرح أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، إشراف: محب الدين الخطيب، ترقيم وتبويب: محمد فؤاد عبد الباقي، طبع دار المعرفة، بيروت، لبنان، دون تاريخ الطبع، وطبع المطبعة البهية المصرية (١٣٤٨هـ).
- **صحيح مسلم**: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبع: المكتبة الإسلامية، إستانبول، دون تاريخ الطبع.
- **الصراع في الوجود**: بولس سلامة، دار المعارف (١٩٩٨م).
- **العروة الوثقى**: للشيخ جمال الدين الأفغاني، نشر دار العرب للبستاني، دون تاريخ الطبع.
- **العقيدة الإسلامية وأسسها**: د. عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، طبع دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م).
- **العودة إلى الإيمان**: د. هنري لنك، ترجمة: د. ثروت عكاشة، طبع ونشر دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة (١٩٦٤م).
- **فتح القدير الجامع بين فنَّي الرواية والدراية من علم التفسير**: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، طبع دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، دون تاريخ طبع.
- **فِكر ومباحث**: للشيخ علي الطنطاوي، طبع مطابع دار المنار بدمشق، نشر وتوزيع المكتبة الأموية، الطبعة الأولى (١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م).
- **قراءة في الفلسفية العربية لنيتشة**: نضال البيابي «آفاق»، مركز آفاق للدراسات والبحوث، إدارة التحرير (٢٠١٠/١٠/٣٠م).

- **قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن**: للشيخ نديم الجسر، منشورات ومطابع المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة (١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م).
- **أبو القاسم الشابي**: ريتا عواد، المؤسسة العربية للدار والنشر، بيروت (١٩٨٣م).
- **القاموس المحيط**: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).
- **الكامل في التاريخ**: أبي الحسن علي بن أبي محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري (ت: ٦٣٠هـ)، تعليق: لجنة من العلماء، طبع دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).
- **الكتاب المقدس ونظريات العلم الحديث**: ترجمة: نظير عريان ميلاد، مكتبة الكتب المسيحية، المكتبة القبطية الأرثوذكسية، الإسكندرية، مصر، دون تاريخ الطبع.
- **كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة**: عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، طبع ونشر: دار العلم، دمشق، الطبعة الثانية (١٤١٢هـ- ١٩١٩م).
- **لسان العرب**: لابن منظور محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت، دون تاريخ الطبع.
- **الله يتجلى في عصر العلم**: مجموعة من العلماء، ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد سرحان.
- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**: علي أبو الحسن بن عبد الحيّ بن فخر الدين النووي، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، دون تاريخ الطبع.
- **محمد مندور شيخ النقاد في الأدب الحديث**: د. محمود السّمرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (٢٠٠٦م).
- **مختار الصّحاح**: محمد ابن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، إخراج دائرة المعاجم، مكتبة لبنان، بيروت (١٩٨٩م).
- **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**: لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة عام (١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م).
- **المستدرك على الصحيحين**: لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ الطبع.

- **المستطرف في كل فن مستظرف**: لبهاء الدين أبي الفتح محمد بن أحمد بن منصور الأبشيهي، تحقيق: إبراهيم صالح، دار صادق، بيروت، الطبعة الأولى (١٩٩٩م).
- **معجم البلدان**: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، طبع: دار صادر ودار الفكر، بيروت (١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م).
- **المعجم الوسيط**: أخرجه: إبراهيم مصطفى، وأحمد حسن الزّيات، وحامد عبد القادر، ومحمد علي النجار، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا.
- **ملحدون محدثون ومعاصرون**: د. رمسيس عوض، مؤسسة الانتشار العربي (١٩٩٨م).
- **المِلَل والنِّحَل**: لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبع: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر (١٣٩٦هـ- ١٩٧٦م).
- **مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: د. زينب إبراهيم القاروط، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م).
- **المنقذ من الضلال**: لأبي حامد الغزالي، مع «أبحاث في التصوف ودراسات عن الإمام الغزالي» بقلم الدكتور: د. عبد الحليم محمود، نشر دار الكتب الحديثة، مطبعة حسان بالقاهرة، دون تاريخ الطبع.
- **موقف البشر تحت سلطان القدر**: مصطفى صبري، طبع: دار الهجرة، بيروت، دمشق، دون تاريخ الطبع.
- **النّبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن**: د. محمد عبد الله دراز، طبع دار القلم، بيروت، دمشق، الطبعة الخامسة (١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م).
- **النهاية في غريب الحديث والأثر**: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزّاوي، ومحمود محمد الطّناحي، بيروت، المكتبة العلمية (١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م).
- **نيتشة**: ترجمة جورج ميخائيل ديب، الإسكندرية، مصر، دون تاريخ الطبع.
- **نيتشة**: د. عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، طبعة (١٩٣٩م).

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٩٩
مقدمة عامة	١٠٠
مشكلة البحث	١٠٠
الهدف من الدراسة وأهميتها	١٠٠
الدراسات السابقة	١٠١
منهج البحث	١٠١
خطة البحث	١٠١
المبحث الأول: تعريفُ التّوازنِ لغةً واصطلاحاً	١٠٣
المطلب الأول: تعريف التّوازنُ لغةً	١٠٣
المطلب الثاني: تعريف التّوازنُ اصطلاحاً	١٠٣
المبحث الثاني: تعريفُ المنهج لغةً واصطلاحاً	١٠٣
المطلب الأول: التّعريفُ اللّغويُّ	١٠٣
المطلب الثاني: التُعريفُ الاصطلاحيُّ	١٠٣
المبحث الثالث: تعريفُ القرآنِ لغةً واصطلاحاً	١٠٤
المطلب الأول: تعريفُ القرآنِ لغةً	١٠٤
المطلب الثاني: تعريفُ القرآنِ اصطلاحاً	١٠٥
المبحث الرابع: تعريفُ الأثرِ لغةً واصطلاحاً	١٠٥
المطلب الأول: تعريفُ الأثرِ لغةً	١٠٥
المطلب الثاني: تعريفُ الأثرِ اصطلاحاً	١٠٦
المبحث الخامس: تعريفُ التّربيةِ لغةً واصطلاحاً	١٠٦
المطلب الأول: تعريفُ التّربيةِ لغةً	١٠٦
المطلب الثاني: تعريفُ التربيةِ اصطلاحاً	١٠٦
المبحث السّادس: أهميةُ المنهج القرآنيّ	١٠٧
المبحث السّابع: التّوازنُ في مفهوم العقيدة بين عالَم الغيب وعالَم الشّهادة	١٠٨

الموضوع	الصفحة
المبحث الثامن: الآثارُ التّربويّةُ المترتّبةُ على التّوازن في مفهوم العقيدة بين عالَم الغيب وعالَم الشّهادة	١١٥
المبحث التاسع: التّوازنُ بين طلاقةِ المشيئة الإلهية وثباتِ السُّنن الكونيّة	١١٦
المبحث العاشر: الآثارُ التّربوية المترتّبة على التّوازن بين مشيئة الله المُطْلَقة، والسُّنن الكونيّة الثّابتة	١٢٠
المبحث الحادي عشر: التّوازنُ بين مفهوم القَدَرِ الإلهيّ والاختيارِ الإنسانيّ	١٢١
المبحث الثاني عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين مفهوم القدَرِ الإلهيّ والاختيارِ الإنسانيّ	١٢٥
المبحث الثالث عشر: التّوازنُ بين عبوديةِ الإنسان المطلَقة لله، ومقامِ الإنسان عند الله في الكون	١٢٩
المبحث الرابع عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين عُبوديّةِ الإنسان المُطلَقةِ لله، ومقامِ الإنسانِ الكريمِ عندَ الله في الكون	١٣٤
المبحث الخامس عشر: التّوازنُ بين مصدريّ العلم والمعرفة: الوحي الإلهيّ والعقل الإنسانيّ	١٣٥
المبحث السادس عشر: الآثارُ التّربويةُ المترتّبةُ على التّوازن بين مصدريّ العلم والمعرفة «الوحي الإلهيّ والعقل الإنسانيّ»	١٤١
المبحث السّابع عشر: التّوازنُ في صلة العبد بخالقه ما بين الخوفِ والرّهبةِ من اللهِ، والرّجاءِ والطُّمأنينةِ والأُنسِ بالله	١٤٢
المبحث الثّامن عشر: الآثارُ التّربويّةُ المترّتبةُ على التّوازنِ ما بين الخوفِ والرّهبةِ من اللهِ، والرّجاءِ والطُّمأنينةِ والأُنسِ باللهِ	١٤٤
فهرس المصادر والمراجع	١٤٧
فهرس الموضوعات	١٥٣